الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد خيضر –بسكرة–

كلية الآداب واللّغات
قسم الآداب واللّغة العربية

المثاقفة والسيرة الذاتية في "خارج المكان"

لإدوارد سعيد

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الآداب واللّغة العربية
تخصص: نقد أدبي

إعداد الطالبة:
- أمينة بوشلالق

إشراف الأستاذ:
* نصرالدين بن غنيسة

السنة الجامعية: 1437/1436هـ
2016/2015م

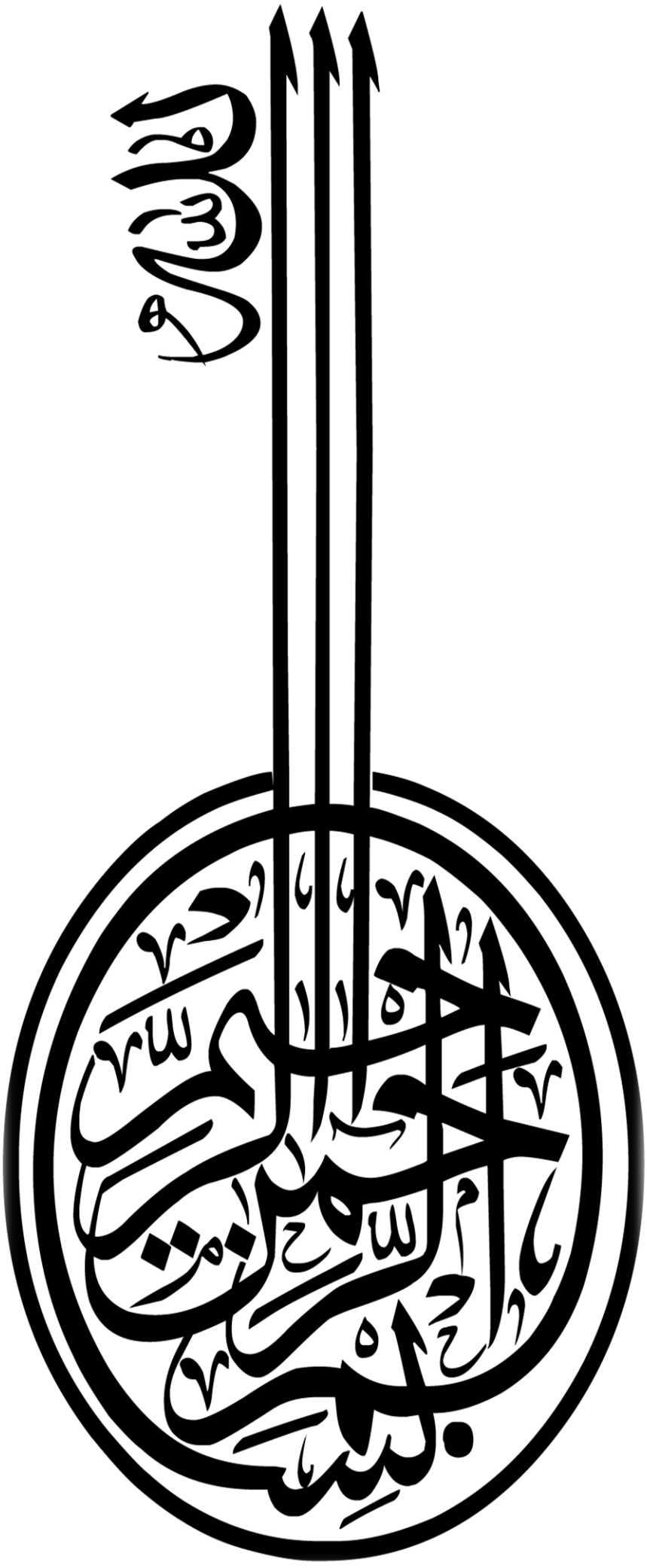
بسم الله الرحمن الرحيم

غريب علي ضفة

النمر،كالنمر.....يربطني

باسمك الماء.لا شيء يرجعني من

بعيدي

إلي نخلة : لا السلام ولا الحرب.لا

شيء يدخلني في كتاب الأناجيل.لا

شيء....لا شيء يومض من ساحل الجزر.

والمّد مابين دجلة والنيل .لا

شيء ينزلني من مراكب فرعون .لا

شيء يحملني أو يحّملني فكرة :لا

الحنين

ولا الوعد.ماذا سأفعل ؟ماذا

سأفعل من دون منفى، وليل طويل

يحدق في الماء؟

محمود درويش

(سرير غريبة)

مقـــدمـــة

شكر وعرفان

مولاي لك أتقرب وأهدي هذا العمل وأرجوا أن تتقبله خالصا لوجهك وإلى أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور

نصر الدين بن غنيسة ، الذي منحني فضل الإشراف أولا و زكّى معارفي و أثرى أفكاري

ثانيا. بارك الله فيك و في والديك وثبتّك الله ثباتا لا عوج فيه.

إلى الأساتذة الدكاترة:

أحمد مداس، صلاح الدين ملاوي، عبد الحميد عباسي رموز التألق الفكري لدي زادكم الله علما.

و إلى كل أساتذة قسم اللغة العربية و آدابها - جامعة محمد خيضر بسكرة

إليكم أبـــــوح:

إنّي المعذّبة بين اليراع والجوى
إنّي ألمتيمة سُئلت بمن يا ترى
أجبت لّغتي أرّقت مهجتي
لها الروح والهوى، هي كلامي لكم

في غمرة عملية التثاقف والمخاوف التي انعكست على الهويّة الوطنية، الهجنة والتعدد داخل الهويّة الواحدة، دفعت هذا التفاعل الثقافي الحالي بين الشعوب فشكّل نوعا من التماهي والتداخل، أو الكوكبية كما أصبح يطلق عليها ممّا أزّم الشعور وعمّق التهديد الذي يمسّ الهويّة الجماعية بوصفها نتاجا تراكميا تنفي عنهاصفة الثّبات والديمومة والسكون.

فالمرء عندما يحسّ بأنّ ثمة ما يهدد وجوده، يسرع إلى تأكيد ذاته باحثا عن شيء أصيل كامن في أعماقه ليطمئّن قلبه وتبرد جوارحه.

والمثاقفة قوامها حوار الثقافات المختلفة وغايتها الأسمى مجتمع إنساني متكامل لا نزاع فيه، لكن هيهات. فنحن في عصر يهدف إلى إلغاء الحدود الفاصلة بين الأنا والآخر،واختزالها ضمن نطاق واحد هو **الأناالجمعية**.

الأمر الذي يطرح العديد من مفارقات الهوّية والانتماء، بالنسبة إلى الأنا نتيجة شعورها الحاد بفقدان خصوصيتها في علاقتها الجدلية مع الآخر.

والتحدث إلى الآخر لا يعني تقديم التنازلات **فإدوارد سعيد يرى أنّ الحياة طريقة اكتساب التاريخ بأن يكون لك وطن واحد وأوطان أخرى**، فهو أحد المنادين بالتعدّد داخل التوّحد أو التركيب الإيجابي.

وبناء على ما تقدّم يمكن الإشارة إلى موضوع هذاالبحث الموسوم ب: **المثاقفة** والسيرة الذاتية في "**خارج المكان**" **لإدوارد سعيد**.

فآثرت أن أختصه بالدراسة لأنّه شوقني لعالم النقد الأدبي المعاصر، والمثاقفة في حدّ ذاتها موضوع مركب ومكثّف، فقد اختُزل الأدب المقارن داخل هذه البوتقة لتتصهر مختلف الدراسات ضمنها.

فأضفت فيه من الجدّة ما ميّز دراستي وصبغت على الناقد وعالم الاستشراق والأكاديمي"**إدوارد سعيد**" لونا فريدا جعله الواحد المتعدّد، المنتمي اللامنتمي، صاحب الهويّة المركبة والحركية.

فكان بوحه يشي هذا الاختلاف ويثبّته داخل متن هو أقرب للاعتراف منه إلى السيرة الذاتية،اختصيتها بالدراسة.

فاخترت "**خارج المكان**" المتن الذي من خلاله حاولت طرح الإشكالية التالية:

- هل تشكلّت هويّةالأنا في الخطاب العربي عبر لقاء الآخر أم عبر مواجهته؟أم الاثنين معا؟.
- هل يمكن الانفتاح على الآخر والحفاظ على الهويّة في الوقت نفسه؟هل يهددنا الانفتاح أم يثري هويّتنا ويغنيها؟

إشكالية حاولنا الإجابة عنها ضمن خطة مقسمة إلى ثلاثة فصول وخاتمة مسبوقة بمقدمة.

فجاء الفصل الأول معنونا بالثنائية الضدية في هويّة"**إدوارد سعيد**"،يليه الفصل الثاني الذي يشمل الثنائية الضدية في شخصية "**إدوارد سعيد**"،مذيلا بالفصل الثالث الذي تمثلت فيه هويّة"**إدوارد سعيد**" بين الأنا والآخر، وأماالخاتمة فتّم إنجاز النتائج التي توّصلت إليها الدراسة.

استدعت الدراسة الاتكاء على المنهج **الوصفي التحليلي** الذي يقتضيه هذا النوع من الدراسات.

وقد ساهمت المؤلفات الآتية في الإنارة والتعميق :مؤلفات "**إدوارد سعيد**" لأنّها الأقرب إلى فكره والأعمق إلى دراستنا.

- كتاب "**بول ريكور**"، "**Paul Ricoeur** " والموسوم ب"الذاكرة، التاريخ، النسيان".
- **كتب روجيه غارودي**التي أزالت لبسا بخصوص موضوع الأديان وحوار الحضارات.
- كتاب المسألة الثقافية للدكتور **محمد العربي ولد خليفة**.

دون أن ننسى ما واجهنا من صعوباتهذا البحث والمتمثلة في مشكلة التداخل بين"**إدوارد**"الناقد "**وإدوارد**" المفّكر والمثقف الكوني مع عدم التمكّن من مسك وتحديد هويّته الزئبقية.

مع الامتنان والعرفان المطلقين لأستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور" **نصر الدين بن غنيسة**" الذي أستسمح منه كثرة إرهاقه لإنهاء هذا العمل، وأدعو **الله** أن يرفع به إلى منزلة العلماء الراسخين في العلم.

نرجوا من الله أن يسدد خطانا ويرزقنا حبـــ العلــم والعمل به

الفصـــل الأول

الثنائية الضّدية في هويّـــــــة

إدوارد سعيد

1- الثنائية الفضائية : فلسطين، مصر، لبنـــــان / أمريـــــكا .

2- الثنائية الزمانية : الماضي، الحاضر / تشكّل الهويّـــة عبر الذاكرة.

1-<u>الثنائية الفضائية</u>: فلسطين، مصر ، لبنان / أمريكا

يبقى للمكان موقع أثير داخل قلوب البشر، يستطيع الإنسان أن يتحرك داخله بأريحيّة وأمان، وأمّا إذا اقتلع منه اقتلاعا وينفى منه، تحترق أنفاسه وينصهر داخل بوتقة المنفى، فتجعل من الذات مبعدة، تنظر من الخارج نظرة انفصال وتستأنس لمعرفة الأحوال فقط.

هي حرقة حركت "**إدوارد سعيد**" وأيقظت قلمه واستفّزته لكتابة مذكراته التي وسمها "**خارج المكان**"، ففعل الكتابة عنده هي فعل استذكار ونسيان.

فقط صرّح داخل هذه السيرة الذاتية عن فلسفته الخاصّة بالمكان، وعن انتماءاته وتساؤلاته عن أيّ بقعة من هذه البسيطة يعتبرها وطنا، وملاذا ومنفى.

بين البينين تئّن روحه، بين الضيّاع والتشوّه وسط عالمين مختلفين حاول رتق الذاكرة واسترداد "**حياته المبكرة بما هي حياة من البحث عن الانعتاق والتحرّر من القوالب الجامدة للعائلة والدين والقومية واللّغة [...] وأعتقد أنّ هذا الكتاب، هو صورة شخصية غير تقليدية لتلك العلاقة التي تنطوي على مقدار من التوّتر، نعم، ولكنّها لا تقتصر على العداء وآمل أن لا أبدو متبجحا إن قلت إن الجديد في" إدوارد سعيد" المرّكب الذي يظهر في خلال هذه الصفحات، هو عربّي أدّت ثقافته الغربية ويا لسخرية الأمر إلى توكيد أصوله العربية.**"[1]

تتوسل هوّية " **إدوارد سعيد**" وتمتطي الكلمات المحيّرة لتعبر عن التركيب والازدواج الذي تعاني منه، ليدعم ذلك " **أمين معلوف**" ويصف الحذر الشديد من الكلمات وبالخصوص إذا همسنا بحروف الهويّة " **فالهويّة لا تتجزأ أبدا، ولا تتوزع أنصافا أو أثلاثا، أو مناطق منفصلة أنا لا أمتلك هويّات عدّة، بل هويّة واحدة مكوّنة من كلّ العناصر التي شكلتها وفق "معايرة" خاصة تختلف تماما بين رجل وآخر**".[2]

بين الحزن "الفرجيلي" (البحث في الأشياء التي ذهبت مع الماضي) والتأّمل "**البروستي**"، كتب" **إدوارد سعيد**" عن أماكن لن تعود لأنّها قابعة في الذاكرة انمّحت

1- إدوارد سعيد: **خارج المكان**، ترجمة فواز طرابلسي، دارالآداب، لبنان، ط1، 2000، ص9.

2- أمين معلوف: الهويّات القاتلة، ترجمة نبيل محسن، ورد للطباعة والتوزيع، سوريا، ط 1999،1، ص8.

وزالت كلّ الآثار الراسبة فهذا طبع عربي أصيل، بل عند كل ذوّاقة وفنان حين يقف عند قدسيّة الأرض، لأنّ ماضيه قد اختفى"**ففلسطين**" تغيّرت وأصبحت تسمّى إسرائيل.

"**إدوارد سعيد**" ولد في **القدس** بالضفة الغربية التي أصبحت فيما بعد دولة إسرائيل، بعدها انتقل إلى" **القاهرة**" التي غيّرتها الحرب، مرورا "**بلبنان**" وبلدة "**ضهور الشوير**" التي دمرتها الحروب الأهلية هذا هو عالم الطفولة الذي" **دمرتها أحداث 1948، والثورة المصرية والاضطرابات والحروب الأهلية اللبنانية التي بدأت عام 1958**".[1]

كلّ هذه التغيرات من مغادرة ووصول ووداع ومنفى وشوق وحنين إلى الوطن بلورت لدى "**إدوارد**" حيرة الانتماء، لكنّه يجيب عن السؤال الموّجه له فيقول " **الهويّة رمز يختاره المرء ولا يتم إعطاؤها له وأنّه من الأفضل أن لا ينتمي المرء إلى أيّ مكان.**"[2]

فجغرافية الارتحال والسفر الدائم والتطبّع بطباع أهل المكان المقصود جعله يتخذ قرارا فريدا، خاصة بالانتماء إلى الوطن أو مكان بذاته يميّزه عن سواه فيقول "**من الأفضل أن يتوه المرء خارج المكان وأن لا يمتلك منزلا وأن لا يشعر بأنّه في منزله أكثر ممّا ينبغي في أيّ مكان.**"[3]

طبعا حسب الفترة التي يعيش فيها، ولأنّ الهويّة شيء يتعلّق "**بالخيار والقيم والمبادئ أكثر ممّا تتعلّق بالولادة.**"[4]

ومذكراته "**خارج المكان**"هي تجوال استرجاعي بين أمكنة شتى قصد نسج خيوط مكان طوباوي ينتمي إليه "**إدوارد سعيد**" فينسيه ألم النفي ومعاناة السفر وخوف اللاعودة، ويمتلك مكانا أشبه بالفردوس الأرضي حتى يثبّت ذاته ، ويثبت أنّه صاحب أرض وليس اللامنتمي المستجير من الرمضاء بحرّ اللّظى.

تبدأ خارطة الطريق أو الطرق التي اتخذّها "**إدوارد سعيد**" حتى يتنقل من نقطة البداية إنّها المدينة الأحبّ والمكان المفقود، " **فالقدس**" مسقط رأسه ولها مكانة خاصة في

1- **خارج المكان**: ص8.

2 – الفلم الوثائقي: رجال صنعوا التاريخ، تعليق: غفراء سليمان و آخرون، ترجمة :محمد باسل الويش و آخرون، إعداد: حسين وصالح حسن.

3- نفسه.

4- نفسه.

قلبه، فهي مرابع الطفولة "**المدينة الجميلة نظيفة المساكن، منظّمة السير، يكثر أهلها من شرب الشاي وسكانّها عرب ذوي الثقافة الأجنبية.**"[1] لتمّر السنوات على الطفل ويبقى حب "**القدس**" والسنوات المقدسية راسخا في ذاكرته فيصف نفسه " **أنا الشاهد الذي لم يشاهد شيئا في العام1948**".[2]

وهو الانطباع الإجمالي العالق في ذاكرته عن ذلك الزمن بين السلم والحرب والخروج القسري من المأوى إلى المنفى.

فجاء الفصل الثاني من المذكرات لسرد الحياة "**القدس**" والحياة المقدسية وللضفة الغربية بأحيائها وسكانها ومنحدراتها، فارتسمت المدينة في ذاكرة الفتى بشعور التحرر من الوحدة التي تقضّ مضجعه لأنّ "**فلسطين اكتسبت طابعا ناعسا بل حلميا**"[3]، وبشعور يمثل أيضا "**انحسار وطأة التنظيم المحكم للمكان والزمان، وهو تنظيم كان محور حياتي في مصر فإنّي لم استطع الاستمتاع كلّيا بذلك التحرر النسبي منه الذي عشته في القدس**".[4]

هذه الشاعرية والروحانية المطلقة التي تطغى على نفس "**إدوارد**" حينما تتوق إلي" **القدس**"، الموطن والمسكن والمهوى، هذا المكان الأول والحب الأول، فحب الوطن من الإيمان، جغرافية طُمست معالمها وخربَّت تضاريسها أيدي الصهاينة المحتلين، "**فعندما أسمع الآن إشارات إلى القدس الغربية فإنّها تعني دوما بالنسبة إليّ الأحياء العربية لمرابع طفولتي، ولا يزال يصعب عليّ أن أتقبّل حقيقة أنّ أحياء المدينة تلك، حيث ولدت وعشت وشعرت بأنّي بين أهلي، قد احتّلها مهاجرون بولونيون وألمان وأمريكيون غزّو المدينة وحوّلوها رمزا أوحد لسيادتهم [...] فلقد أضحت القدس الغربية الآن يهودية بالكامل، وطُرد منها سكانّها السابقون نهائيا في أواسط 1948.**"[5]

1- **خارج المكان**: ص149.

2- نفسه: ص152.

3- نفسه: ص47.

4- نفسه: ص148.

5- **خارج المكان**: ص149.

طبعا "**إدوارد**" ينشد تماما لعودة الأشياء والكائنات إلى المكان الذي رسمته لها حالة اليقظة في الفضاء، وفي الزمان وإحساسه بندم يعتريه وذنب ارتكبه هو وأهله وسكان **فلسطين، " وكأنّنا جميعا قد تخلّينا عن فلسطين بما هي مكان لا عودة إليه".**[1]

فأصبح منفى يعتريه الإحساس القوي والتكراري" **المتوّقع بالنفي الذي ينتزعك من كل ما هو أليف ومريح وما يستثير لديك الحاجة إلى المغادرة بسبب منطق مسبق لكنه من صنعك أنت ويمنحك شعورا عارما بالنشوة، وفي كل الأحوال فإنّ أعظم ما يخيف في المغادرة إنّها حالة من الهجران على الرغم من أنّ المهاجر هو أنت."**[2]

إحساس تنامي من كثرة التجوال بين الأماكن التي قطن بها " **إدوارد**"على طول أيام حياته.

لننتقل بالسرد من "**القدس**" والمنفى إلى"**القاهرة**" المدينة الكوزموبوليتية صاحبة البيوت الفخمة والمتاجر الثمينة والسيارات الكبيرة والجموع الكثيرة الضاجة، فسكانها لا يبدو عليهم التجانس" **لأنّ سكان القدس بدوا أكثر تجانسا من سكان القاهرة، فهم بالدرجة الأولى من الفلسطينيين."**[3]

اشترت العائلة مسكنا في الزمالك ذات السكان الأجانب والشوارع الهادئة المرصوفة بالأشجار والمصّممة بعناية والخالية من المحلات التجارية، أسهمت"**القاهرة**" في تنمية هويّة المراهق والانبهار مقارنة مع "**القدس**" الهادئة.

إنّ "**إدوارد**" دائم التصريح بأنّه في غير مكانه حتى في "**القاهرة**" المدينة التي أحبّها على الدوام دون أن يشعر مرة بانتمائه إليها.

ممّا يحيل إلى اللاانتماء " **قد حكم عليّ أن أبقى اللامنتمي، مهما فعلت وهنا أيضا شعرت بأنّ قدومي من جزء من العالم في حال من المخاض الفوضوي صار يرمز إلى أنني في غير مكاني"**[4].

1- نفسه: ص46.

2- نفسه: ص153.

3- نفسه: ص 149.

4- **خارج المكان**:321.

وكأنّه أصبح كائنا حدوديا، عابرا ومتنقلا عبر البلدان والمدن والمساكن واللّغات والبيئات.فيقول عن هويّته المصرية واللامصرية "**هويّتي غير المصرية المركبة، الملتبسة، بل والمريبة، وكوني عادة في غير مكاني، أمثّل شخصا بلا ملامح محددة ولا وجهة معروفة يتّجه إليها ولا أحد يحسّ بها إلاّ الأم بل تتعاطف مع محنتي هذا يكفيني دعما مؤقتا أعتزّ به كبير اعتزار**".[1]

ممّا فاقم لدى"**إدوارد**" الشعور بالمنفى وصار يكتب عليه بحرقة كبيرة، وقد أسال حبرا كثيرا فهي أزمة تعايش معها وأصبحت مزاجا من بين أمزجة العربي المنفي وزيادة على ذلك، جنسية أجنبية وجواز سفر أمريكي أشبه بتعويذة تحميه من التهميش والقهر، فالمنفى هو "**أحد الأقدار مدعاة للكآبة، وفي أزمنة ما قبل العصر الحديث كان الإبعاد عقابا مرعبا بصفة خاصة، لأنه لم يكن يعني فقط أعوام يعيشها**." [2]ويصوّر معاناة الإنسان في تعايشه هذا "**يعيشها الإنسان تائها بدون هدف، بعيدا عن الأسرة وعن الأماكن المألوفة، بل يعني أيضا أن يكون أشبه بمنبوذ دائم، لا يشعر أبدا كأنّه بين أهله وخلانّه، لا يتفّق البتّة مع محيطه، لا يتعزى عن الماضي، لا يذيقه الحاضر والمستقبل إلّا طعم المرارة**".[3]

ومدّعما آراءه حول ارتباط الإنسان والمكان يقول "**إدوارد سعيد**" في كتابه "**العالم والنّص والناقد**". موّضحا الفرق بين صاحب النفس الوديعة والقوّية. فالأولى يرّكز على بقعة واحدة من العالم، في حين الإنسان القوّي يوّسع حبه كي يشمل الأمكنة كافة، والإنسان الكامل هو من يخمد جذوة حبه ويدفنها بل ويذروها بين أرجاء المعمورة فينشرها عبيرا تعطّر البسيطة بها. هي فكرة الإنسان والمواطن "**إدوارد**" يرى" **الإنسان الذي ينظر موطنه أثيرا على نفسه هو إنسان غفل طرّي العود، والإنسان الذي ينظر إلى أيّة تربة وكأنّهـــا تربة موطنه فهـــو إنسان قوّي، وأمّا الإنسان الكامل فهو ذلك الذي يرى العالم**

1- نفسه: ص 91.

3- إدوارد سعيد : صورة المثقف، محاضرات ريث سنة 1997، ترجمة :غسان غصن، راجعته: منى أنيس، دار النهار، ط3، 1997، ص59،57.

3- نفسه: فس الصفحتان.

بأسره غريبا عليه".[1]

"**القاهرة**" تمثل فضاء مشرّعا على دلالات أكثر غنى وكثافة لتعدد أجناسها وكثرة سكانها وتفاوت مواقعهم الاجتماعية، ففكرة الانتقال والتنقّل جعلت "**إدوارد سعيد**" يعيش في اضطراب و قلق كبيرين.

ينتقل السارد إلى مكان آخر يعتبر مهوى فؤاد الوالد وهذا الفضاء مصيفه مدينة "**ضهور الشوير**" فهي من الأماكن التي يعود إليها " **إدوارد سعيد**" كعصفور يعيش الهجرة صيفا وشتاء، وهي بيئة لبنانية، مدينة محبوبة من طرف والده، فقد آثر أن يجعلها مرقد روحه ومثواه الأخير دون أن تتحقق الأمنية والمتمثلة في قبر يحمل اسم"**وديع سعيد.**" "**ضهور الشوير**"هي مكان صيفي تسكنه العائلة، فتبتعد عن ضوضاء "**القاهرة**" وصخب الحياة هناك، هروب مستلّذ عندهم دون أن تكون نفس رغبة "**إدوارد**" "**معاناة عطل الصيف في ضهور الشوير، المخدّرة للعقل والمحكمة البرمجة [...] أخذنا نقضي كل صيف في تلك القرية الممّلة من قرى جبل لبنان التي تعلّق بها أبي أكثر من أيّ مكان أخر على وجه الأرض.**"[2]

فوالده لاعب البريدج المحترف، بل المتقن لجميع أنواع الورق يرى في هدوء القرية مكانا يصّفي ذهن وروح رجل الأعمال الأمريكي الذي صنع نفسه من لا شيء "**مزج أبي في شخصه القسوة والصمت المطبق والعاطفة العجيبة**".[3] فالبريدج هو وسيلة استرخاء وتسلية هذه اللعبة مخدرة لذهن الفتى، ذلك الذي احتفظت ذاكرته بمحاولات الأسرة "**غير المتبادلة ولا المجزية، للانتماء إلى مكان والتشبّث به كيفما كان، فيما هو في نهاية المطاف يسير في مجراه الخاص بما هو جزء من بلد أشّد تقلبا وتذررا وأكثر مرارة في انقساماته مما توقعه أيّ منّا.**"[4]

وكأنّ المرارة والكآبة قدر في وجه "**إدوارد سعيد**" وأسرته، فتمزّق الأمكنة يعادله تمزّق الإحساس ليورث ذلك النفي حتى في الأقطار العربية، " **فالمنفى إذن إبعاد عن الوطن ،**

1- إدوارد سعيد :العالم والنّص والناقد، ترجمة: عبد الكريم محفوض، منشورات إتحاد الكتاب العرب، 2000، ص9.

2- **خارج المكان:** ص53.

3-**خارج المكان:** ص54.

4- نفسه: ص330.

ونبذ ونزع للألفة والمنفى منزلة بين منزلتين وزمكان مؤقت يقع زمكانيين، أحدهما ماض صيغت ملامحه في الوطن المبعد، والآخر وشيك الحدوث في المستقبل(الموت) هكذا يكون المنفى هو البرزخ".[1] وحين يتعلق الأمر بجروح تصيب الكبرياء الوطني نستطيع عندها أن نتكلم عن حق في حب مفقود، مسلوب.

"**أمريكا**" العالم الجديد أو الشق الثاني من حياة "**إدوار**د"، هذا المكان الذي نفيّ إليه بمحض إرادة العائلة. لذلك عدّ نفسه عابرا للحضارات، فبين الشرق والغرب أصبح كائنا حدوديا، منذ فتح عينيه وجد نفسه أمريكي, لكنه عربي يحمل جوازا أمريكيا، لكنه يقطن في "**القدس**"، تساؤلات حيّرت ذهن الطفل، يشبّ الفتى فيتأمرك ويتقمّص الجنسية الأمريكية فحتى اسمه أصبح "**إد، سعيد**".

سافر إلى "**أميركا**" وهو ابن الخامسة عشر وكان يتملّكه " **شعور بالوحشة اللاهادفة أين أنا ؟ ما الذي أفعله هنا [...] لا صلة له البتة بهويّتي.**"[2]

أصبحت "**أمريكا**" منفى لتشكّل مفارقة كبيرة في هوّيته بصفته اللاعربي والأميركي اللاأميركي، وقارئ الإنجليزية ومتكلّمها الذي يناضل ضد الإنجليز، حتى في "**أمريكا**" تتّقل بين مقاطعاتها من "**نيويورك**" إلى "**واشنطن**" إلى "**بوسطن**" إلى ألطف بلد في **الولايات المتحدة الأمريكية**، لقد استقّر سبعة وثلاثين سنة ، لطالما امتلك فكرة غامضة جدا عما كانت ستؤول إليه حياته لو أنّه لم يذهب إلى أمريكا، فلا يزال يلازمه بعض الندم" **وهذه المذكرات هي في وجه من وجوهها، استعادة لتجربة المغادرة والفراق إذ أشعر بوطأة الزمن يتسارع وينقضى، ولمّا كنت قد عشت في نيويورك بإحساس مؤقت على الرغم من إقامة دامت سبعة و ثلاثين عاما فقد فاقم ذلك من ضياعي المتراكم، بدلا من مراكمة الفوائد.**"[3] إنّ السند الوحيد في حياة "**إدوارد**" (يكره أميركا والأمريكيين)

1- محمد الشحات: سرديات المنفى، الرواية العربية بعد عام 1967، أزمنة للنشرولتوزيع، ط1،عمان-الأردن، 2006، ص23.

2-**خارج المكان**: ص 177.

3- نفسه: ص 80.

الوالدة التي يدمج صوته وروحه لها فيقول:" **صوتين واحدنا للآخر، روحين متحالفتين بسعادة.**"[1]

"**أمريكا**" بلد المراسلات مع الوالدة، تلك المراسلات الأسبوعية دامت حتى بعد ما توفيت إثر مرض السرطان، فدفنت فيها، تلك البلاد التي كانت تتحاشاها دوما وتكّن لها الكراهية أساسا، وإن ارتبطت بها ارتباطا لا فكاك منه من خلال زوجها أولا، ثم من خلال أولادها، قبل أن ترتبط بها من خلال مرضها الأخير.

"**إدوارد**" يشترك مع أمه مرض السرطان الذي سوف ينهي حياتهما في العالم الجديد، إضافة إلى العجز عن النوم، فالأم رفضت العلاج الكيمياوي في أيامها الأخيرة "**إدوارد**" نشّط ذاكرته من أجل مواساة روحه وهي ترزخ تحت نير المرض الخبيث "**فالنوم عندي أصبح معادلا للموت مثله مثل أيّ تقليص للوعي.**"[2]

حتى أصبح يساور "**إدوارد**" شعور غريب وإحساس بعدم الراحة والأرق إضافة إلي القلق فهو يعتبر نفسه تيارات متدافعة شكّلت لديه مركبات غريبة يفضلها ويؤثر" **هذه الفكرة عن نفسه على فكرة الذات الصلدة، وهي الهويّة التي يعلّق عليها الكثيرون أهمية كبيرة لتدفق تلك التيارات مثلها مثل موضوعات حياتي، خلال ساعة اليقظة وهي عندما تكون في أفضل حالاتها [..] إنّه ضرب من ضروب الحرية على ما يحلو لي أن أعتقد والوقع أنّي تعلّمت، وحياتي مليئة إلى هذا الحد بتنافر الأصوات، أن أؤثر إلّا أن أكون سويا تماما وأن أظّل في غير مكاني**".[3]

هذه الغربة والتمزّق وهو في قلب حضارة تدهش العقول وتهواها القلوب الضعيفة وتنسلخ إكراما لها الجلود فتلوّن بلون أميركيز

لكن "**إدوارد**" يشعر بالحزن والمنفى، رغم أنّ الوالد أسّس لأن يكون "**الحمى الشرق الأوسطي الذي ابتناه لنا ليكون بيتا وملجأ وملاذا، وتوزعت أركانه بين القاهرة والظهور وفلسطين، مهددا هو أيضا بالتصـــدع والزوال[...] نحـــن كسرات فلسطينية–**

1– نفسه: نفسها.

2– **خارج المكان**: ص373.

3– نفسه: ص337.

عربية – مسيحية– أمريكية هشمّها التاريخ".[1]

"**فلسطين**" طيب يحترق لتنقله رياح موسمية إلى أمكنة حاولت أسرة " **آل سعيد**" أن تفّوحها بين أرجاء شرنقتها الأسرية دون أن تستطيع لتجد بخورها مبثوث من الضفة الغربية إلى نيويورك المدينة العالمية .

ليصرّح أخيرا في نهاية سيرته الذاتية " **الآن لم يعد يهمني أن أكون "سويا" وفي " مكاني" بل إنّي لم أعد أرغب أصلا في ذلك، خيرا ليّ أن أهيم على وجهي في غير مكاني، خصوصا في مدينة مثل نيويورك حين سأعيش إلى حين وفاتي ".**[2]

حتى آخر رمق في حياة "**إدوارد سعيد**" كان يحلم بأمكنته التي يحاول الإمساك بها عبر ذاكرته وحاولت ترميم ماض قصد بناء جسر ينقله إلى حياة فردوسية تمسح عنه مظاهر الألم و الحسرة و الغرب

2 –الثنائية الزمانية: الماضي ، الحاضر/ تشكل الهوية عبر الذاكرة

تعّد الذاكرة من الهبات الجمّة التي أورثها ربّ البرايا في مخلوقاته فبها نستطيع العودة إلى الزمن الجميل، إلى الطفولة أو بمعيّتها نتمكن من التذّكر والاستذكار سواء الجميل منها أو القبيح، المحزن أو المفرح فكل هذه الأحاسيس مخزّنة في الذاكرة.

تبدو بمثابة " **ذخيرة ثقافية حيّة تستوعب باستمرار القّيم الثقافية لجماعة ما وأشكالها التعبيرية والرمزية أي كلّ ما يميزها عن غيرها ويلحم سواها ويبلور موقفها من الوجود.**[3] "

ويبقى للذاكرة مرجع وحيد ألاّ وهو الماضي مهما كان معنى هذا الماضي، فهذا "**بول ريكور**"**(Paul Ricoeur)** يقول :"**إنّ البحث عن ذكرى يشهد فعلا لواحدة من كبرى غايات فعل الذاكرة وهي النضال ضد النسيان ومن أجل انتزاع بعض نتف الذكرى**

من ضراوة الزمان ومن الدفن في النسيان."[1]

1– نفسه : ص336,343.

2– **خارج المكان**: ص372.

3– محمد الداهي : صورة الأنا والآخر في السرد، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة – مصر، 2013، ص204.

فالذاكرة هي إنتاج الماضي لذا حاول "**إدوارد سعيد**" نسج خيوط ماضيه وأعطى للموسيقى دورا كبيرا في شحذ ذاكرته إلى حد بعيد "**وهو ما سمح لي أن أحفظ، ثم أن أؤدي على السمع عددا من المؤلفات الموسيقية المعدة [...] وكانت ملكتي الأقوى هي ذاكرتي التي سمحت لي بأن استعيد بصريا مقاطع كاملة من الكتب [...] فاختبرت لحظات من غبطة الاستذكار تسمح لي بأن أتجاوز بحرا من التفاصيل.**"[2]

وفكرة كتابة هذه السيرة الذاتية هو الهروب من المشقات التي سبّبها مرضه المتزايد "**فالإكثار من الاستذكارات ومحاولات إحياء نتف من حياة عشتها أو استحضار بشرا غابوا.**"[3]

حرّكت آلام ومعاناة وحفّزت الذاكرة لدى "**إدوارد**" فدفعت به لاستحضار الذكريات والتفكير في ماضي حميم بين مدينتي "**القاهرة**" و"**القدس**" خصوصا بعد "**أن احتجبت المدينتان عني لمجمعتين مختلفتين من الأسباب الأخيرة لأنّ إسرائيل حلّت محلها والأولى لأنّها منعت من دخولها لأسباب قانونية.**"[4]

كل هذه الآلام والخيالات والصور والاتفاق القائم بين" **الذاكرة والماضي لمصلحة الكتابة الحميمة في مكان متخيّل فإنّه قد مّر من الإنجاز الرياضي لذاكرة متدرّبة إلى ما يدعوه بيتس حق "خيماء الخيال". فالحزن هو دوما رد فعل على خسارة حبيب أو تجريد رفع منزلة بديلة لهذا الحبيب، كما هو الحال مع الوطن أو الحريّة أو المثل الأعلى.**"[5]
فالكتابة انتقال من كلمة إلى كلمة، هي فعل استذكار وهي إلى ذلك فعل نسيان.

لأنّ هذا الكتاب "**هو سجل لعالم مفقود أومنسي**"[6] كما أراد "**إدوارد سعيد**" له. فخلّف وراءه سيرة ذاتية لحياته في العالم العربي ونظيره الغربي حيث ارتاد المدرسة والكلية

1- بول ريكور: الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة وتعليق وتحقيق: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، لبنان، ط1، 2009، ص71.

2- **خارج المكان:** ص283.

3- نفسه: ص285.

4- **خارج المكان:** ص285.

5- بول ريكور: المرجع السابق،115.

6- **خارج المكان:** ص18.

والجامعة، فذاكرته مليئة بالإحساس نحو الأماكن الأولى العربية وفضاءات العالم الغربي المدهشة لأنّها أجمل وأكثر تطورا شهده إنسان القرن الحالي.

فانبهر بها وعلقت في خلده "**لأنّ المرء لا يتذّكر ذاته فقط وهي تحسّ وتتعلم بل يتذكر أوضاع عيش في العالم، رأى أثناءها أو أحسّ وتعلّم هذه الأوضاع تحوي ضمنا الجسد الخاص وجسد الآخرين والمساحة المعاشة. وأخيرا أفق العالم والعوالم الذي وقع تحته شيء معين [...] لأنّ الانتقال من الذاكرة الجسدية إلي ذاكرة الأماكن، يتم بفضل أعمال مهمة تتعلق بمعرفة الجهة والتنّقل وقبل كل شيء بالسكن في المساحة من الأراضي المأهولة بالسكان، نتذكر أنّنا قد سافرنا وزرنا مواقع لا تنسى وهكذا فإنّ الأشياء التي تذّكرناها تربط داخليا جوهريا بأماكن معينة.**"[1]

"**إدوارد**" عرف وعاش تجارب الترحال حتى التخمة أو الملل أحيانا أخرى، إنّ حياته سفر بمختلف وسائل النقل (الطائرة والحافلة والسيارة والباخرة) إضافة لنظرية انتمائه إلى الأمكنة بمختلف حاضرات العالم من الشرق الأوسط (**القدس, القاهرة لبنان)**، وقارة أوروبا (**فرنسا، لندن)** وقارة أمريكا (**مختلف مدن الو م أ، بوسطن، متشجن، نيويورك)** حتى أصبح يعاني فوبيا phobie السفر موضحا ذلك بقوله: "**عندما أسافر أصطحب معي دائما كمية لا حاجة لي بها من الأمتعة وحتى لو كانت رحلتي لا تتعدّى وسط المدينة.**"[2]

وفي موقف آخر قد يبدو تافها، يصف مشهد زيارة لأقاربه أيام كان تلميذا في مدرسة "**ماونت–هيرمون**" **Mount Hermone** بالولايات المتحدة الأمريكية، هي أسرة عمه في "**النيويورك**"، من أجل قضاء عطلة عيد الميلاد، يتذكر ذلك المشهد ويشكر تلك العائلة لعدم التصريح بهذه المضايقة – الكم الكبير من الحقائب – فيسرد المشهد كالأتي " **كان بإمكاني تركها في المدرسة ولكنّي كنت أرفض رفضا قاطعا، لأسباب عُصابية، أن أذهب إلي أيّ مكان دون أن أصطحب معي جميع ممتلكاتي.**"[3]

1- بول ريكور: المرجع السابق ، الصفحات: 86,85,79.

2- **خارج المكان:** ص293.

3- نفسه: ص 293.

هذه كانت ذاكرة تشعره بالنفور من الإحساس المزدحم داخل ذاته القلقة وخوفه الدائم من فقد المكان، فحالة اللااستقرار التي يعيشها تتطلب منه ذلك، فهو مستعد للتنّقل منذ نعومة أظافره، وحسب **بول ريكور** توجد ذاكرة سعيدة وأخرى شقيّة "**لأنّ جهد الاستذكار يمكن أن ينجح أو أن يفشل، إنّ الاستذكار الناجح هو أحد صور ما نسميه بالذاكرة السعيدة**"[1].

فيقول "**إدوارد**" موضحا ذلك"**إنّ العديد من الأمكنة والأشخاص التي استذكرها هنا لم تعد موجودة على الرغم من أنّي اندهش باستمرار لاكتشافي إلى أيّ مدى استبطنها وغالبا بأدّق تفاصيلها بل بتشخيصاتها المروّعة، لعبت ذاكرتي دورا حاسما في تمكيني من المقاومة ضد المرض [...] فالأكيد أنّ الذاكرة تشتغل بطريقة أفضل وبحرية أكبر عندما لا تفرض عليها الأساليب المعّدة أصلا لتشغيلها.** "[2]

يقوم "**إدوارد**" بسرد دقيق عن الانتقال عبر ذاكرته مصوّرا الماضي والحنين له والارتحال عبر بساط التذّكر، يكفيه إلحاحا، فالطفولة أجمل الأوقات لدى بني البشر وعند "**إدوارد**" هوس وشوق للزمن وخصوصا لارتباطه بالأمكنة التي نزلت بها أسرته الصغيرة والكبيرة، إضافة إلي المدارس التي تعلّم فيها هو وزملاءه مستفيضا في السرد للأجواء العامة التي مرّت وعلقت في ذاكرته السخيّة والقوّية التي ورثها عن والده.

وإنّ" **فعل السكن هو الذي يشّكل الصلة الإنسانية الأقوى بين التاريخ والمكان وإنّ الأماكن المأهولة هي بامتياز أماكن جديرة بالذكر، وإنّ المهم هو أن تربط هذه الأفكار بصور وأن تختزن هذه الأزمنة في أماكن [...] حيث تقوم هذه الأماكن بلعب دور لوح الشمع بينما تقوم الصور بدور الحروف المسجّلة على هذه الصورة.**"[3]

إنّ "**إدوارد**" حزين لأنّ الزمن لن يستعاد، لذا أصابته صدمة فلا يسعه إلاّ أن يقوم "**بتفريغ الماضي الذي في داخله فأدركت مجددا مدى هشاشة وقيمة وزواليّة التاريخ**

1- بول ريكور: ص68.

2- **خارج المكان**: ص 18.

4- بول ريكور: المرجع السابق،115، 116.

والظروف التي تمضي إلى غير رجعة ولا تجد من يستعيدها ويدوّنها اللّهم إلاّ على شكل ذكريات عرضية أو أحاديث متقطعة".[1]

والأمر الذي أربك "**إدوارد**" هو نقل تجاربه المعاشة وترجمتها "**لا في بيئة نائية فحسب وإنّما أيضا في لّغة مختلفة**".[2]

فالانفصال اللّغوي بين اللّغة العربية لّغته الأم وبين اللّغة الإنجليزية، اللّغة التي تعلّم وعبّر بها بحكم ميدانه الأكاديمي قد أسهم في صقل لسان"**إدوارد**"، وتعلّمه كيفية التفكير والتعبير بهما الاثنين، الأولى للأمل والثانية للتّأمل.

تملّكه إحساس محموم بتأدية وترجمة التجارب بين البيئتين، فهو يرى أنّ العائلة تخترع الأبناء وتمنحهم القصص والشخصية والقدر والمصير، بل تمنحهم اللّغة هي الأخرى.

والشيء الذي آمن "**إدوارد سعيد**" يقينا به هو أنّ اللّغتين كانتا موجودتين دوما في حياته، فالكتابة" **تصبح لمن لم يعد عنده وطن، مكانا للعيش وكتابة المنفى كتابة تصل المكان بالهويّة والأرض بالثقافة والتاريخ واللّغة بالوجود**".[3]

فاللّغة والكتابة وجهان لهويّـــة فردية، تتحرك داخل المكان والزمان لينتج أفكارا ثقافية يحاول صاحبهما تحقيقها على أرضية الواقع وإنّ لم يحالفه الحظ يرفعهما إلى عالمه الطوباوي ويحيك حولهم أنسجة الخيال الميتافيزيقي، فيبقى الأمل هو الملجأ الوحيد.

غير أنّ الدافع الرئيسي لكتابة هذه المذكرات هو طبعا حاجة "**إدوارد**" "**إلى أن أجسّر المسافة في الزمان والمكان بين حياتي اليوم وحياتي بالأمس، أرغب فقط في تسجيل ذلك بما هو واقع بديهيّ دون أن أعالجه أو أناقشه، علاوة على أنّ إنكبابي على مهمة إعادة تركيب زمن قديم وتجربة قديمة قد استدعى شيئا من البعاد والسخرية في الموقف والنبرة .**"[4]

1- **خارج المكان**: ص20.

2- نفسه: نفسها.

3-محمد الشحات :المرجع السابق، ص24.

4-**خارج المكان** : ص22.

اضطـــراب الشخصية وتشرّبها بالخوف والمنفى وكل هذه الأمزجة والمشاعر ولّد لدى "**إدوارد**" ثنائيـــة ضدية لاستذكار الماضي بين التوتر والاسترخاء "**حين نتذّكر وقائع الماضي، وحين نسمع خطابا، وحين نتابع فكر الغير وحين نسمع أنفسنا ونحن نفكر وأخيرا حين يكون هناك نسق معقّد من التصورات يشغل ذكاءنا، نشعر أنّنا نستطيع أن نتخذ موقفين الأول يتميز بالتوتر، والآخر بالاسترخاء . وهما يختلفان بشكل خاص في أنّ الشعور ببذل الجهد حاضر في أحدهما وغائب في الآخر.**"[1]

هذا الشعور المركب من الاسترخاء والتوتر أصبح مزاجا أقرب إلى الطبيعي عند "**إدوارد**" فسيطر عليه وغلب على بعض أحاسيسه الغريزية، وكأنّه اكتسب التركيب وعدّله ليكون حاسة يستشعر بها الأمور المتواجدة في غير مكانها، هي أشبه بفلسفة حول المكان الذي يؤمن مفكرنا بالانفصال والاتصال له في الآن نفسه، لن ندرك معنى هذه الفلسفة إلاّ إذا تجردنا من التشبّث الغريزي للمكان.

1-بول ريكور : المرجع السابق، ص65.

الفصل الثـانـي

الثنائية الضدية في شخصية إدوارد سعيد

1- الثنـــــائية العلًمية : (إدوارد/ سعيـــــــــد) .

2 - ثنــــــــائية دينية : سلم (إســلام، مسيحية ، يهودية)
حرب (_صهيونية).

-**الثنائية العلَمية (إدوارد / سعيد) :**

إنّ كل إنسان مرتبط باسمه ارتباطا وثيقا فالاسم معلم من معالم الشخصية والأمر الذي لم يتقبله "**إدوارد سعيد**" هو هذه الازدواجية المتنافرة التي وجدها في اسمه المركب من الشق الإنجليزي "**إدوارد**" والآخر العربي"**سعيد**". إنّها شراكة لازمته طوال عمره وكان الاسم الإنجليزي يسبب له الإحراج فيقول "**أخفف من الحرج الذي يسببه لي هذا الاسم الإنجليزي الأخرق الذي وضع كالنير على عاتق "سعيد" اسم العائلة العربيَ القحٌ.**"[1]

وهذا الحرج لازمه قرابة خمسين سنة لتتغلب العادة على الصراع الذي عايشه السارد لحياته وكيفية تلفظ اسمه، فأحيانا يتجاوز "**إدوارد**" ويؤكد "**سعيد**" والأخرى يفعل العكس، "**أو يعمد إلى لفظ الاسمين معا بسرعة فائقة بحيث يختلط الأمر على السامع.**" [2]

وردود الأفعال كانت أسوأ من تلّفظ الاسم "**إدوارد**"؟ "**سعيد**"؟ فالجنسية أمريكية مع الولادة، والأصل عربي ينحدر من بلاد "**فلسطين**"، و"**القدس**" مسقط الرأس، لكنّ الاسم إنجليزي وما زاد الطين بلة، اللّغة، لا يدري "**إدوارد**" أيّ اللّغتين لهج بها أولا أهي العربية أم الإنجليزية ويستمر التساؤل إلى أيّ منهما يقينا هي لّغته "**الأولى ترّجع صدى الثانية.**"[3]

لكنّ التساؤلات والإجابات، كانت تشكل سياق تحد واعتراف وهتك "**من نوع ما أنت؟ لكّن** سعيد **اسم عربي، هل أنت أمريكي؟ تقول إنّك أمريكي مع أنّ اسمك ليس أمريكيا وأنت لم تزر أمريكا قط لا يبدو شكلك أميركيا، كيف يعقل أن تكون ولدت في القدس وأنت تعيش هنا؟ أنت عربي، في نهاية المطاف، ولكن من أي نوع؟ هل أنت بروسطانتي؟.**"[4]

فكأنّ "**سعيد**" هنا لديه هويّة واحدة وهويّات متعددة ولا هويّة بطريقة ما.

رنّة وغنج اسم "**إدواارد**" داخل أذن الطفل فيبقى جرس المناداة ملتصقا في الذاكرة صوت الأم وهي تنادي ولدها.

1- **خارج المكان:** ص25.

2- نفسه: نفسها.

3- نفسه: ص26.

4- نفسه : ص 28.

فهي تتّعمد التكلم باللّغتين وكانت توشح لّغتها العربية بالكلمات وما إن" **تنتقل أمي من العربية إلي الإنجليزية حتى تصير نبرتها أكثر موضوعية وجدية، فتكاد تطرد نهائيا الحميمية المتسامحة والممزوجة للّغتها الأولي العربية.**"[1]

كانت"**هيلدا**" مصدر إلهام "**إدوارد سعيد**" والحضن الدافىء، بل كانت العالم بأسره، اختصر في انعكاس ذات الأم على الولد المحّب لأنّ هذه الأخيرة قد "**اغتصبت موقعا في حياتي لا حق لها فيه وإنّما المسألة أنّها نجحت في أن تدخل حياتي وأن تبقى فيها إلى آخر أيامها بل إنيّ أشعر معظم الأحيان أنّها بقيّت فيها بعد ذلك** ".[2]

فمفارقة الهويّة عند "**إدوارد سعيد**" بين ماضيه الفلسطيني المستعمر وحاضره الأمريكي الإمبريالي جعله يفكر بأهمية اللّغة فهو مرتبط بالعربية والإنجليزية والفرنسية بحكم الثقافة فمن خلالها يتسلّل الإنسان إلى قيّم وحضارات الشعوب .

أورد "**عبد الله البريدي**" قولا عن **مارتن هايدغر، (Martin Haydger)** خاص باللّغة "**إنّ لّغتي هي مسكني، وهي موطني ومستّقري، وهي حدود عالمي الحميم ومعالمه وتضاريسه، ومن نوافذها ومن خلال عيونها أنظر إلى بقية أرجاء الكون الواسع.**"[3]

فاللّغة هي من أهّم الرموز الثقافية المشكلة لهويّة الإنسان.

"**فإدوارد سعيد**" دائم البوح عن ازدواج في شخصيته واضطراب في هويّته وتعدّد لسانه، فعائلته تخلق كائنا على مقاييسها دون أن تعلم أنّ الإنسان يستطيع أن يكتم ما بذاته "**تتغذى لا من** "إدوارد" **الذي يسهم في إنتاجه أهلي والمعلمون والملهمون المفكرون وإنّما تتغذّى من ذاتي الجوّانية الأقل طواعية، ذاتي السّرية التي تستطيع أن تقرأ وأن تفكّر بل أن تكتب باستقلال عن إدوارد وأعني بالتعقّد نمطا من التفكّر بالذّات يملك تماسكا خاصا به [...] وكان التعقّد شيئا خصوصيا ومتفّردا يهبني القوة عندما تخور قوى إدوارد.**"[4]

1- **خارج المكان:** ص 28.

2- نفسه: ص 275.

3-عبد الله البريدي: اللغة هوية ناطقة، منظور جديد يمزج اللغة بالهوية والحياة، كتاب المجلة العربية، دون سنة، ص28.

4- **خارج المكان:** ص 209.

فقد حاول قلب الموازين لصالحه، لأنّ النظام الصارم الذي عاشه خلال السنوات الأولى من حياته وعدم ترك الفراغ يقتل الفتى خلق نوعا من الانفصال أو بالأحرى الفصل، هو عمدي في حالة "**إدوارد**" بين شخصيتين إحداهما ضعيفة مستكينة لأب قاس، قوّي حاد الطبع والشكيمة وأخرى قوّية، محبّة، جامحة تركع تحت أقدام أمه الحنون، قطبا الأب والأم ولدّا كبتا حاولا أن يبدلاه خبرات ومهارات "**وبفضل إلحاح أبي المستغرب جمعت علما وخبرة في العاب رياضية عدّة بما فيها كرة المضرب والسباحة وكرة القدم (على الرغم من إخفاقي الملحوظ فيها) وركوب الخيل وألعاب الميدان والكريكيت وكرة الطاولة والملاحة البحرية والملاكمة ولئن كنت لم أبرز في أيّ منها فلأنّ خجلي الشديد عطّل قدرتي على السيطرة على الخصم**" [1] كل هذا الزّخم الرياضي ورغم الخسارة المتكررة إلّا أنّ مهارة طبيعية نمت وشكلّت لديه زخما ونفسا خارقين .

ويبقى الاسم عائقا في وجه "**إدوارد سعيد**"" **فلمّا كنت قد ادّعيت أنّ "سغيد " هو اسمي الأميركي، فقد عانيت الأمرين في درس العربية إذ اضطررت إلى أن أخفي ملكتي الممتازة للّغتي الأم انسجاما مع الصيّغ الفارغة التي توزّع وتمرّ على الشباب الأميركي بوصفها العربية المحلية (وهي إلى عربية المطبخ اقرب) لم أتّطوع لأيّة مهمة ولم أتكلم إلا نادرا.**" [2]

هذه كانت وجهة نظر"**سعيد**" أن يقلب حرف العين إلى مثيله الغين لأن اللّغة الإنجليزية لا تستوعب هذا الحرف، فهذا تذّاكي الفتى الأميركي حتى يبقى متجانس مع الأميركيين الآخرين ولكن "**الأمر الذي لم يخل من الاستفزاز من مثل استفزازات معلمة اللّغة العربية الشابة الجميلة [...] أصّرت على رواية رحلة جوّية سمّيت "سعيدة" على اسم شركة الطيران المصرية المنشأة حديثا [...] مكرّرة الاسم المرّة تلو الأخرى كأنّما لتؤكد الصفة العربية الضامرة لاسمي وقد جهدت لتخفيض ذلك الاسم إلى مستوى معايير اللفظ الأميركية الدارجة "لا يإدوارد" قالت بتشديد [...] بعبارة أخرى كفاك من إدّعاء أنّ اسمك "سغيد" أنت اسمك "سعيد" كما في سعيدة، لن تستطيع إنكار الصّلة بين الاثنين.**"[3]

1- نفسه: ص98 ، 99 .

2- نفسه: ص 116.

3- **خارج المكان**: ص 116.

ويأتي اسمه مختلفا على فترات حياته فأحيانا "**سعيد**" تصبح "**سايد**"[1] وفي مدارس يتم التركيز على اسم "**سعيد**"[2]، وأحيانا أخرى يأتي اسم "**إدوارد**".

يشيد كثيرا "**إدوارد**" بشخصيته المرّكبة وأحيانا يستمتع بهذا التركيب ويتمّتع بالإنصات إلي جزئه السّري فهاهو يستذكر حواره مع جزئه" **غير الإدواردي من شخصي ينعم بترف التمهّل في الإجابة، إلى أن يضيق كياني بصمته.**"[3]

فهو دوما يراها نمطية خاصّة في هويّته، تمنح منذ الولادة لكن المرء يختار أين يقيم بين الهويّات المتعددة التي تسنح له فرصة الانتماء لها.

أصبحت لدى "**إدوارد**" شبكة متعددة من الاستقبالات لكنّه يعيد صياغتها بنوع من المزج السريع داخل شخصيته المركبة تركيبا مربكا في الآن ذاته ناضج، لأنه تعايش داخل هذا القلق والسعادة والخجل أيضا، وأخيرا انتصر البوح على كل هذه المكبوتات والجروح فالإفصاح يمنح الراحة والحرية.

فسواء الاسم أو الدّين أو الثقافة تعطي عصاراتها وتصّبها داخل الشخص.

إذن هو المسؤول الوحيد عن كيفية إخراجها للعالم وجعلها تبدو سوية، يوضح ذلك "**علي حرب**" يجمع هذا المزج كله ويعبّر عنه بفلسفة خاصة مختلفة نوعا ما عندما نشهده لدى"**إدوارد**"

" **الهويّة هي نسبة الذات إلى الغير والأنا إلى الآخر [...] ولا تستدعيهم هويّة الأنا من دون الآخر وأنّ الوعي بالذات يمرّ بالضرورة عبر الغير وأنّ الآخر حاضر في الذات بقدر ما هو غائب، وقريب بقدر ما هو بعيد إذ الغير هو الوجه الباطن لنا وهو ما كنّاه أو ما يمكن أن تكونه واستقّر عنده أن لا تشابه بإطلاق ولا تباين بإطلاق.**"[4]

جدلية الاسم لدى "**إدوارد سعيد**" انبرت داخل ذاته والآخر بدءا بأسرته ثم المدرسة لتتأسس لدى الآخر الأجنبي، وهو ما سيفصل قوله في الفصل الثالث بين شخصية "**إدوارد**" والآخر في مختلف سياقاته.

1- نفسه: ص 78 .

2- نفسه: الصفحات التالية: 255، 256، 274، 276، 277.

3- نفسه: ص 26.

4- علي حرب: خطابة الهوية (سيرة فكرية)، منشورات الاختلاف، ط2، الجزائر، 2008، ص 41.

فالازدواج يراه تعايشا داخل شخص واحد، ويرى من العبث البتر والفصل بينهما كأنّهما "**جسمان متوازيان بل توأمان يتحّسس واحدهما أديولوجيا وروحانيا كل عنصر غريب يتعذّر استيعابه عند الآخر وينفعل إزاءه، لقد اختبرت دوما ذلك الشعور بالغربة المزدوجة، فلا أنا تمكنّت كليا من السيطرة على حياتي العربية في اللّغة الإنجليزية، ولا أنا حققّت كليا في العربية ما قد توصّلت إلى تحقيقه في الإنجليزية.**"[1]

بين الحيرة والتميز بقيّ "**إدوارد**" يتساءل ويفكّر لكن لا ينتصر لأخرى عن أختها إنهما توأمتان حقيقيان.

لكن الغالب مسحة الحزن والتواري إلى الخلف دائما تشاؤمي، فما تركه في نفسه يبوح به "**أحزنني كثيرا أنّي، منذ مطلع كانون الأول–ديسمبر 1951 صار الجميع يؤمركني بصفتي "إد, سئيد" باستثناء بريغر الذي ازددت تقديرا لسخريته الطليقة وفكاهته المتعددة اللّغات يوما بعد يوم فيما المزيد والمزيد من ماضيّ يتوارى وقد برتّه ببطء ولكن بثبات شكليات الروتين الأميركي الناظم لأيامنا ولياليا [...] حولته آلة التغيير تحويلا فقد كان يحادثني بالعربية والفرنسية لكنه ما لبث أن أحجم عن ذلك وسرعان ما مضى كل منّا في سبيله.**"[2]

يبقى التناقض المقلق في الجدلية القائمة على التضاد أصلا لدى "**إدوارد**"؟ هذا الاسم الإنجليزي، ونظيره" **سعيد**" العربي.

لكن كلّ من اسمه نصيب ونصيب إدوارد، الإمساك بناصية اللّغة الإنجليزية أولا، ثم وباستنزاف واستنفار من هويّته العربية المتأخرة يتفوه لسانه بلّغة عربية دُهش منها ناطقها فأبعدت عنه شبهة التنصّل لأصله العربي **القح**، هذه الكلمة التي لازمت متن السيرة كلّما ورد ذكر الهويّة العربية أو اللّغة الأم.

1– **خارج المكان**: ص 8.

2– **خارج المكان**: ص 292.

2- الثنائية الدينية: (إسلام، مسيحية، يهودية) سلم / (صهيونية) حرب,

من نافلة القول التحدّث عن الديانات التي تعاقبت وتعايشت داخل أرض **فلسطين،** وكل دين يعتبر الأرض وسكانها أحقّ بالعبادة والممارسة، ففوق تراب ذلك الموطن نجد بيعا وصوامع ومساجد وكنائس مقدسة.

أيضا يوجد قساوسة ورهبان وأئمة تزّسخ شرائح الأديان المنزّلة، وقد حاول "**إدوارد سعيد**" الرّد على فكرة صراع الحضارات والأديان التي جاء بها **صمويل هنتغنتون.** والحملة المسعورة على الإسلام الاسلامفوبيا والإرهاب " **وصمويل هنتغنتون بكتابه سيء الذكر (صدام الحضارات) الذي رأى فيه بأنّ الصراعات السابقة حدثت داخل الحضارة الأوربية نفسها لكن صراعات القرن القادم (الواحد والعشرين) ستكون بين الحضارات وقسّم العالم إلى حضارات رئيسية ثمانية ورشّح الحضارة الإسلامية للصدام مع الحضارة الغربية.** "[1]

فها هو "**إدوارد**" يصف " **تطور الشعور بالإسلام كتهديد للآخر بتصور المسلمين متعصبين وعنيفين وشقيين وغير عقلانيين في أثناء الفترة الاستعمارية فيما سميته بالاستشراق [...] استّمر ذلك الشعور لأنّ مُؤسس جذور دينية راسخة بعمق إذ ينظر إلى الإسلام كمنافس للمسيحية.**" [2]

وأكثر الأساطير التي حاربها "**إدوارد سعيد**" هي الأسطورة الصهيونية التي تدعي أنّ "**فلسطين**" أرض بلا شعب واليهود شعب بلا أرض، وسياسة الأرض وأنّ "**فلسطين**" هي أرض الميعاد واليهود هم الشعب المختار، لطالما تغنّى "**إدوارد**" وآمن" **بالدولة الديمقراطية الفلسطينية الواحدة التي يعيش فيها المسلم والمسيحي واليهودي على قدر المساواة كحل لقضية فلسطين ووضع حد للصراع العربي الإسلامي**".[3]

1- إدوارد سعيد: خيانة المثقفين (النصوص الأخيرة)، ترجمة : أسعد الحسين، دار نينوي للنشر والتوزيع، دون طبعة، سنة 1432 هـ، ص22.

2-نفسه: ص 19.

3- نفسه : ص 24.

ويعطي اليهود أو بالأحرى اليهود الأصليين الحق في العيش داخل أرض "**فلسطين**" ويرفض الحرب والتفجير ويؤمن بأنّ " **الأرض ذات سيادة يحررها من الاحتلال العسكري تحرك جماهيري يشمل العرب واليهود وحيثما أمكن ذلك.**"[1]

وتشكّل "**فلسطين**" بؤرة أرجوانية لدى "**إدوارد**"، خاصّة أنّ الرجل مقيم ومتجنس ومنتمي بحكم المواطنة إلى أكبر مساند للعدو الأول ضد البلد الأم، إحساس الانفصال والتمزّق يقهر "**إدوارد**"، والنفي والاقتلاع يزيد من حدّة الوطيس "**وكانت فلسطين تلوح كلمح البصر ثم تختفي من حياتنا النيويوركية في ذلك الصيف سمعت لأول مرّة من تأييد الرئيس ترومان للصهيونية حين كان أبي يقلب صفحات الجرائد [...] منذ ذلك الوقت اكتسى اسم ترومان عندي طاقة تعويذية شريرة [...] ألومه على دوره الحاسم في تسليم فلسطين للصهاينة.**"[2]

رغم أنّ الرجل مسيحي لا ينتصر للمسيحية في شيء، وقد فصّل في الديانة الإسلامية وألّف عدّة مؤلفات من أمثال، " **تغطية الإسلام**" و "**الإسلام الأصولي**".

وداخل متن الأخير يقول " **الإسلام لا يفصل بين الكنيسة والدولة ذلك أنّه نظام كلّي شامل للعقيدة والعمل سواء بسواء، يتضمن قوانين صارمة تشرع للحياة اليومية بالإضافة إلى حافز تبشيري يأمر بقتال الكفرة أو دعوتهم ومن هنا فإنّ المتدينين وعلى الأخص هم رجال الدين.**"[3]

أمّا على الصعيد الثقافي فإنّ الإسلام لم يحظ بموقع واضح في أمريكا.

– **روجيه غارودي** يؤكد إنّ للإسلام منزلة جديدة " **كان في وسعه أن يخلق في الظروف الجديدة للغرب، من الاتحاد الوثيق بين الأديان الإبراهيمية الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام، عهدا جديدا من الإيمان، إسلام منفتح، على جميع الثقافات من الصين ومن الهنـــــد ومن الشرق الأدنى ومن البحـر الأبيض المتوسط بكامله ومدشنا**

1– خيانة المثقفين: ص 25.

2- **خارج المكان:** ص 128.

3– إدوارد سعيد وبرنارد لويس: الإسلام الأصولي (في وسائل الإعلام الغربية من وجهة نظر أمريكية)، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط 1، 1994، ص 43.

عصرا جديدا من الإنسانية ".[1]

فالإسلام ليس دينا جديدا ولد بنبوءة الرسول **محمد** (صلى الله عليه وسلم) **والله** ليس إلها خصوصا خالصا بالمسلمين، فكل من اليهودي أو المسيحي أو المسلم داخل محرابه يناجي مولاه ويتوسل ويطلب رضاه، فسبحانه مرسل الأنبياء والرسل .

ويحاكم "**روجيه غارودي**" الصهيونية الإسرائيلية ويكشف خرابها في العالم وخططها لاحتلال فلسطين ويسانده في ذلك البروفيسور "**إسرائيل شاحاك**" " **الحكومة الصهيونية تستغل الديانة اليهودية من أجل أهداف سياسية.**"[2]

وكما سبق ذكر أسطورة "**فلسطين**" أرض بلا شعب واليهود شعب بلا أرض يتغنّون بصهيون ذلك الجبل، فيؤكد "**غارودي**" " **صهيون ليس مقدسا إلاّ إذا هيمن عليه القانون الإلهي وذلك لا يعني أن كل قانون كتب في القدس هو قانون مقدس، وإنّ الأرض ليست وحدها كفيلة بتحقيق الاتحاد مع الله، فالشعب الذي عاد إلى صهيون مفروض عليه نفس مطالب العدالة والاستقامة والإخلاص للاتحاد مع الله.**"[3]

نظرة "**غارودي**" موافقة "**لإدوارد سعيد**" حول الإسلام والقرآن " **والله يأمر في القرآن المسلمين بتكريم أنبياء اليهود ومسيح النصارى ويأتي الرسول ليذكر الناس جميعهم بالدين الأصلي [...] وقد أرسلك النبي محمد من الله مصدقا للرسالات السابقة ومطهرا لها مما علق بها من الإفسادات التاريخية وإتماما لها.** " [4]

فهناك عدّة مزاعم أثقلت كاهل تاريخ **فلسطين**" **وأكثرها المزعم السياسي العسكري المتعسف للإمبراطورية الرومانية ومفهومها للمواطنة [...] ومن التقاليد الغربية أن التاريخ العبري هو النموذج الأمثل للدين، وإن (المعجزة الإغريقية) هي النموذج الأمثل للثقافة وكذلك الإمبراطورية الرومانية فهي النموذج الأمثل للوحدة السياسية.**"[5]

1- روجيه غارودي: الإسلام في الغرب (قرطبة عاصمة العالم والفكر) ترجمة: دوقان قرقوط، ط 1، دمشق،1995، ص 190.

2-روجيه غارودي: محاكمة الصهيونية الإسرائيلية، دار الشروق، ط1، (1999 – 1419)، ص 45.

3-روجي غارودي: نفسه، ص 36.

4-روجي غارودي: الإسلام في الغرب، ص 171.

5- روجيه غارودي: فلسطين أرض الرسالات السماوية، ترجمة قصي اتاسيس، ميشيل واكيم، دار طلاس، دون طبعة، 1991.

أمّا "**إدوارد**" في مناقشة هذه الأفكار بآراء أخرى يرى أنّ الاستشراق استفحل وأخذ أبعادا أخرى والثقافة أصبحت إمبريالية ذات هيمنة فاعلة للاحتلال والسيطرة فقد تم غرس الإسرائيليين في فلسطين بقوة القوى العظمى، "**إنّ الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة وتدمير المجتمع الفلسطيني والهجوم الصهيوني الثابت على الهويّة القومية الفلسطينية، أسباب ذلك تؤكد تاريخ الاستشراق لأنّ الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزّة وتدمير المجتمع الفلسطيني والهجوم الصهيوني الثابت على الهويّة القومية الفلسطينية، تمت بوحي من المستشرقين [...] في الماضي كان المستشرقون الأوروبيون المسيحيون هم الذين يزودون الثقافة الأوروبية بالحجج اللازمة لاستعمار، وقهر الإسلام ولقهر اليهود.**"[1]

ورغم معاناة الشعب الفلسطيني من آلام وويلات تحت قذائف العدو الصهيوني الإسرائيلي فلخطاب "**إدوارد سعيد**" الكوني الموجه للبشرية يرأف حتى بالآخر اليهودي ويعطيه الحق في الوجودز

هذا الأخير الذي كان ضحية المجازر النازية، وقد أمضى 35 سنة في المدافعة عن حقوق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وكشف الفضائح التي عانى منها اليهود والشعب اليهودي، وما عانى هذا الأخير من الاضطهاد والإبادة الجماعية، والشيء الأسمى هو ذلك الصراع من أجل المساواة في **فلسطين/إسرائيل** الذي يجب أن يوّجهه إلى هدف إنساني أي " **التعايش وليس مزيد من الاضطهاد والإنكار.**"[2]

هذا بخصوص اليهود وحقهم في السكن والانتماء، لكن ليس كلهم بل فقط المقيمين وليس المهجرين والنازحين من أرجاءالعالم .

أما بالنسبة للإسلام والغرب بصفة عامة والنظرة الاستعلائية التي جعلتهم يرون فيه غير قابل للتطور أو التغيير، يقول "**إدوارد**" ويدافع عنه لأنّه رمز من رموز الهويّة الفلسطينية فأورد في كتابه خيانة المثقفين الأتي: " **لأنّ روح الإسلام لا يمكن أن تلتقي مع روح وأخلاقيات النظام الرأسمالي القائم على المنافسة والتعدّدية والعقلانية أمّا المجتمع الإسلامي فهو مجتمع مغلق مستبد غير عقلاني تذوب فيه النوازع الفردية**

1-إدوارد سعيد: تعقيبات على الاستشراق، ترجمة وتحرير: صبيحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1996، ص 47.

2- إدوارد سعيد: خيانة المثقفين، ص 19.

ويكون الصوت النهائي المسموع فيه للقيّم المجتمعية المختلفة التي تعلي من شأن الطاعة والقبيلة والعشيرة." [1]

وإذا أرجعنا إلى فكرة صدام الحضارات ونهاية التاريخ التي"**استفحلت في الغرب هي فكرة خاطئة كلاهما زعما خاطئ لأنّ التاريخ الثقافي له حدود واضحة أو بدايات وأواسط ونهايات في حين يمثل المجال الثقافي السياسي مكان صراع حول الهويّة وتحديد الذات** ".[2]

نعم **فإدوارد** كان لديه اضطراب في هويّته وبعد اشتعال الحرب في **فلسطين** 1967 (حرب الأيام الستة) اتقدّت فيه الهويّة العربية وحاكى في صدره الانتماء وألّح عليه اللّسان بإتقان حرف الضاد لا لشيء إلاّ لانتصار الإنسان وقيمته، فالوطن انتماء والاستيلاب منفى وخسارة ماضي.

فهاهو يصف القدس " **وكانت القدس الرمادية الساكنة مدينة متوترة بسبب سياسات ذلك الزمان والمنافسات الدينية بين مختلف المذاهب المسيحية كما بين المسيحيين واليهود والمسلم.**"[3]

فأورشليم مدينة السلام وليست مدينة طوباوية، لأنّالإنسان الذي يقطن ويتعاقب عليها يريد الأنانية البشرية أن تتحقق على هذه الأرض،فالسلام يُغرس غرسا ويسقى بماءالعيون،فقدسّية المكان تتطلّب روحانية عالية ترقى لمصاف الآلهة، وليس تنازعا لأحقيّة شعب على آخر فالحقيقة المرّة، والغافل عنها إنسان ذلك المكان، أرض الله لله وسيرثها، والمخلوق يصارع ولا ينال شيء فيا ترى هل حقا ينال هذه الأمنية.**السلام ؟؟ !!.**

أما الإنسان الذي يعاني الفقد والاقتلاع والنفي فيصف أعماقه بصدق الإنسانية الحتمي، تصوّر روح "**إدوارد**" ذلك وتسترسل "**فقد كنت أعاني أنا نفسي فصاما تجاه فلسطين، ولم أنجح في محاولاتي تجاوزه، ولا أنا أدركته تمام الإدراك إلاّ مؤخرا، عندما أقلعت عن المحاولة [...] فإنّ الازدواج المستمر في نظرتي إلى المكان وإلى خسارته المحزّنة بالاقتلاع المركب والتمزيق [...] ونظرتي إلى موقع فلسطين بما هي بلد رائع**

1- إدوارد سعيد: مرجع سابق، ص 23.

2- نفسه: ص 25.

3- **خارج المكان**: ص 292.

لهم هم "وطبعا ليس لنا ، يوجعني على الدوام ويوّرثني شعورا محبطا بأنّي وحيد وأعزل ومعّرض لاعتداءات أشياء تافهة تبدو مع ذلك هامة وخطيرة، ولا أملك تجاهها أيّ سلاح."[1]

هل تعلمون ما هي هذه الأشياء التافهة الهامة في الآن ذاته، ببساطة الإجابة القطعية لسؤال أرّق **إدوارد** – هل أنـا من هنا أم من هنـاك؟.

فبين الهنّا والهنّاك تتنقل روح وتتقطع أوصال وتضطرب هويتان، ليرسو برّ التركيب على ميناء الازدواجية العربية الأمريكية داخل إنسان واحد هو **شخص إدوارد سعيد.**

1- **خارج المكان** : ص184.

الفصل الثالث

هويّة إدوارد سعيد بين الأنا والآخر

1- الأنا والآخـــــــــــر الأســــــــــــرة .

2- الأنـــا والآخـر المـــــــــــــــدرسة .

إنّ الحياة التي عاشها "**إدوارد سعيد**" والفضاءات المتعددة، والديانات والثقافات التي شهدها، وتشبّعه بالقيّم الإنسانية والكونية أمدّته بتأثيرات قوّية على هويّته فجعلتها مركبة وحركية دائما وبحكم هذا التمازج الثقافي، وهذه الهويّة المركبة وشعوره بالتمزّق والتشّظي جعله يلّح في طرحه لإشكالية الأنا والآخر، نتيجة الاحتكاك بالآخر(أمريكا).

فأحسّ"**إدوارد سعيد**" بضرورة إبراز هذه الهويّة وبلورتها وديناميكيتها حتى تتعايش مع هذا الآخر، الذي يرى في الشرق آخرا له متخلفا .

فالنظرة الدونية من طرف المركزية الغربية أرّقت "**إدوارد**" وجعلته يقوّض هذه النظرية، لأنّ مادية الغرب وروحانية الشرق أسهمت في بداية الصراع الحضاري. والاستلاب الذي أخذ منعطفات جديدة.

فناقش"**إدوارد**" هذه القضايا في كتابه الاستشراق وبعض المؤلفات الأخرى.

فجدلية الأنا والآخر من أهم القضايا التي يعالجها النقد الأدبي في عصرنا الحالي وهي جدلية تمّس موضوع الهويّة والهويّة الثقافية.

كل هذه التداخلات أسالت حبرا كثيرا فقد كانت "**إدوارد سعيد**" أراء واضحة ساهمت في دفع عجلة النقد.

" **إدوارد سعيد الأمريكي الذي شاء أن يكون فلسطينيا، والفلسطيني الذي أراد أن يكون أمريكيا [...] وكان في كلّه مثقفا إنسانيا شاملا. يرى ذاته في الآخر، ويرى إلى الآخرفي ذاته، دون أن يقع في التبسيط، أو يسقط في المحاكاة الفارغة.**"[1]

فقد حاول جاهدا أن يكون إنسانيّ النزعة وذا ثقافة متنوعة، فالمثقف هو لسان قومه، مع العلم أن "**إدوارد**" له عدّة ثقافات ويتكلّم العربية والفرنسية ويفكر بالإنجليزية.

" **فقد وجدتُني في وضع غريب مفتقرا إلي أيّ موقع طبيعي أو قومي يحدوني إلي استخدام الفرنسية، وأضحت اللغات الثلاث مسألة حساسة جدا بالنسبة إليّ عند بلوغي الرابعة عشرة، فالعربية محرّمة والفرنسية لغتهم هم لا لغتي أنا، أما الإنجليزية فمجازة ولكن أرفضها لأنها لّغة البريطانيين المكروهين** ".[2]هذه الأنا المجيدة لهذه اللّغات والواقعة محتارة بينهم أيّها أشّد انتماء.

1- عبد الله تركماني: إدوارد سعيد، "المثقف الكوني والهوية المركبة"، مجلة ابن رشد، العدد 10 ،2010 .

2- **خارج المكان**: ص247.

لكن مع الدربة وبمرور الوقت يتقن "**إدوارد**" اللّغات الثلاث بشكل يقارب أبناء البلد ممّا يحدث داخله صراعا واضطرابا شديدين فيحاول مزج هذه الخلاصات الناضجة وسكبها في شخصه مع استمتاع منقطع النظير حينما جاوز سن الستين.

فهاهو يقول: " **سحرتني أوليّات اللّغات بطريقة مغالية وأنا أتنّقل تلقائيا في ذهني بين احتمالات ثلاثة فحين أتكلم الإنجليزية، أسمع المعادل العربي أو الفرنسي للمفردات وغالبا ما أنطقه، وحين أتكلّم العربية أسعى إلى المترادفات في الفرنسية والإنجليزية، فأحزمها تحزيما فوق كلماتي مثل حقائب مستّفة على رفّ للأمتعة، فإذا هي موجودة ولكنها هامدة ومربكة نوعا ما والآن وقد جاوزت الستين أشعر براحة كبيرة لا في الترجمة وإنّما في التحدث أو الكتابة في تلك اللّغات بطلاقة ابن البلد تقريبا، وإن لم يكن ذلك كليا، والآن تغلّبت على نفوري من العربية الذي سببه النظام التعليمي والمنفى وصرت أستمتع بها.**"[1] طبعا هذا الصراع الداخلي بين الذات وذاتها، ويحدث أن تصبح الذات آخرا بالنسبة لذاتها، هذا ما يعانيه "**إدوارد**" **فهويّته مضطربة** لا يمسك بتلابيبها وإنّما يسعى إلى فهم ذاته.

والبحث عن"**الاختلاف المطلق هو اختلاف من الاختلاف[...] وما يختلف عن الاختلاف هو الهويّة كما بيّن "هيجل""Hugle"، فالهويّة لا تنفك إذا عن المغايرة ولا يتعّين المثل من دون المختلف، بل كل مثل هو ذاته وغيره في آن كل مثل هو واحد ومنقسم، هكذا يتسلل الاختلاف إلى مملكة الذات وتصبح المغايرة مقوّما من مقوّمات الهويّة ويقبع الآخر في صميم الأنا**"[2].

هي أقرب إلى الميتافيزيقا منها إلى أرض الواقع ومما أزّم ومزّق الهويّات هذه الكوكبية المقلقة والتوتر الذي يشهده العالم والحروب العالمية المدمرة للإنسان والكون واغتصاب الإنسان لحقوق أخيه الإنسان بدوافع لا أساس لها، غير القوة والمال وغطرسة السلطة.

الحق في الوجود أمر مشروع للمخلوقات، وامتلاك بيت وأسرة من ضروريات الحياة والتعليم أيضا أصبح سلاحا أقوي من أي شيء آخر، لكن عندما يكون الحال عند"**إدوارد**"

1- نفسه : نفسها.

2- علي حرب: النصّ والحقيقة، المركز الثقافي الغربي، لبنان، ط3، 2000، ص29.

يتغير الأمر، فالأرض محتلة، والأسرة تعيش الارتحال بين الأمكنة في المدن العربية والغربية، والتعليم هو الآخر مختلف فجلّ المدارس أجنبية.

رسخ كل هذا الاختلاف في ذهنه فجعله يسهب في السرد والوصف، فجاء مؤلفه "**خارج المكان**" في مجمله استذكارا للمدارس الأوّل وأرمادة التلاميذ المنوّعين بين أجانب وعرب و إرمن وأتراك وأقباط ويهود وأميركان وفرنسيين وهنود وقلة من أولاد الأغنياء سكنوا ذاكرة "**إدوارد**". ولشدة تعلّق الفتى بهذا العالم المختلف عن الأسرة والبيت يعّده رمزا للإنعتاق والتحرر، فقد كتب مطوّلا، وبحكم مهنة "**إدوارد**"–الكاتب والأستاذ الجامعي– جاءت سطور وطيّات الكتاب سفر بين الأسرة والمدرسة المختلفة.

وحركية الهويّة داخل هذه البوتقة المضطربة تذيب المتنافرات وتصهر كل العناصر على مستوى الهويّة الفردية "**وبأنّ الهويّة في مستوى الفرد هي شبه واختلاف، يجعل الفرد يتحرك في ثقافته، ويعبر دروبها جيئة وذهابا. كما أنّ ثقافته تتحرّك فيه تدعوه تارة ليشبه غيره، وهو ما تقوم به التنشئة في مؤسستين على درجة كبيرة من الأهمية هما الأسرة والمدرسة.**" [1]إنّ سطوة هاتين المؤسستين والشبكة المكثّفة للأماكن عند"**إدوارد**" فيوّضح ذلك عن هويّته والعناصر التي"**شكلّت جزءا عضويا من عملية نموّي واكتسابي هويّتي وتكوين وعيي لنفسي وللآخرين، وفي جميع تلك الأمكنة، احتلّت المدارس مكانا مميزا في قصتي، وهي صور مصغّرة عن المدن أو البلدات حيث عثر لي أهلي على مدارسو سجلوني فيها [...] المؤسسات الأولى التي درست فيها، وعن أهمية الدور الذي لعبه الأصدقاء والمعارف في حياتي قياسا إلي الأصدقاء والمعارف أيام الجامعة أو المدرسة الداخلية في الولايات المتحدة، ومن الأمور التي حاولت استكشافها ضمنا السطوة التي مارستها تلك التجارب المدرسية المبكرة جدا عليّ وبسبب استمرار تلك السطوة، ولماذا انبهر وأهتّم بها إلي درجة الكتابةعنها بعد مضيّ خمسين سنة.**"[2]

يتساءل "**إدوارد**" عن سبب الانبهار والعودة بالسرد للماضي، أهوّ تنفيس عن مكبوت يزول أثره بإخراجه للعلن ؟؟ أم استذكار بريء للزمن الجميل تحّن له روح فتي

1– محمد العربي ولد خليفة: المسألة الثقافية وقضايا اللّسان والهوية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2003، ص95.

2–**خارج المكان**: ص22.

يسكن"**إدوارد**" الكهل ؟. أو نظرة ناقد أستاذ يطرح طرق ومعاملات على الأساتذة والمعلمين اقتباسها والأخذ بها قصد إنتاج جيل فريد من نوعه ينهض من تحت هذه الامبريالية المتعجرفة التي تتحكم في العالم والعلم، وتسيّس كل الحياة بما فيها الأطفال .

أشار"**إدوارد**" إلى تسييس المعرفة عن طريق الأخلاق، فهو يعّد صوتا أخلاقيا عاليا يدعو من خلال انفتاحه الفكري الواسع إلى حوار عالمي قصد المشاركة في تقرير المصير البشري.

1-<u>الأنا و الأخر الأسرة:</u>

كانت أسرة"**إدوارد**" من الأسر التي تبني حياة أولادها وتسّطر مسارهم وفق تنظيم عال، وقد وصف عائلته بأنّها شرنقة عظمى، وكان يميل إلى أمه ميلا عظيما فهو يعتبر نفسه معها روحين لا ينفصلان.

أو أشبه ما تكون بعلاقة مستعمر وما يملك من مستعمرات "**مستبدلة إياه بعلاقات ثنائية معها، كمثل علاقة المستعمرات بالحاضرة الاستعمارية، وشكلتّها كمجّرة تنفرد بالإحاطة بكامل أجرامها.**"[1]

يبرزهنا أنّ والدته ذات قوة فائقة لا يمكن قهرها وهو يستمتع كثيرا بالدوران داخل مدارها وما زاد قربه منها النقاط المشتركة بينهما.

أولاها اللّغة فهي بارعة ومجيدة للّغتين العربية والإنجليزية لأنّها كانت من المتفوقين في دراستها قبل ارتباطها برجل يكبرها بسنوات كثيرة، ذلك الرجل الذي اجتثها من " **لبنان**" وأسكنها "**القاهرة**" تلك الحاضرة التي أدهشتها وواستها قليلا.

ويصف"**إدوارد**" أمه "**بأنّها امرأة بسيطة وإنسانة طيبة لا تأتي إلا الأفعال الصالحة وتكنّ لنا حبا متساميا وترغب في أن يخبرها كل واحد منا بكل شيء.**"[2]

والقاسم المشترك الثاني هو المرض الخبيث إنّه السرطان فقد حرمها مثله التمتّع بالعيش في صحة وهناء بعد رفضها المطلق للمعالجة الكيميائية.

إضافة إلى ذلك إحساسها الكبير بالنفي والتشرد.

1- **خارج المكان**: ص91.

2- نفسه : نفسها.

كان"**إدوارد**" يشارك أمه شغفا آخر إنّه الموسيقى ونظرا لها "**أعني نضالها داخل بيت يكبلها سعيا إلى وسيلة تعّبر بها عن نفسها وتحقق فيها ذاتها وتطورها كانت تلك على ما أعتقد حاجات أمي الأساسية، مع أنّها امتنعت عن الاعتراف بها علنا ولما كنت وحيدها، أشاركها سهولة الاتصال بالناس وشغفها بالموسيقى والكلمات، فقد أضحيت أداتها للتعبير عن نفسها وتطوير نفسها.**"[1]حاولت جعل الفتى أداة طيّعة تصقلها وتسقيه الموهبة وتنمّي طاقاته الداخلية لتستنطقها كما تريد وتشاء.

وأكثر ما آلم "**إدوارد**"تجربة الانفصال عن أمه هذه الأخيرة التي أربكته "**وهو ما يورثني الحزن الذي لا يبرأ، والالتفات اليائس إلى الماضي، والخيبة والتعاسة في الحاضر[...] كانت رغبتها في أن أكون معها مشروطة نوعا ما، فلم يكن عليّ أن أتكيّف مع أفكارها عني وحسب، وإنّما أن أكون لها أيضا، في حين أنّها قد تكون هي لي أولا تكون اعتمادا على مزاجها.**"[2]

ومقارنة مع علاقة "**إدوارد**" بوالده يجد نفسه بعيدا عنه كل البعد"**وخلافا لوالدي، كانت أمي تبثّ فيّ عذوبة سائغة وشعورا بالدعم يقوّي من عزيمتي، كنت أرى نفسي في عينيها كائنا مباركا وكاملا ورائعا، إطراء واحد منها عن ذكائي المتفوّق أو عن موهبتي الموسيقية أو عن وسامة ملامحي، يشيلني شيلا، ويمنحني شعورا، ولو مؤقتا بالانتماء إلى عالم خير واسع**".[3]

إنّ"**إدوارد**" تنازعه رغبة محمومة اتجاه أمه، يفسرها ويمثلها بالأرض والكيان الخالد ربّما لأنّه عانى الاقتلاع والنفي مما عمّق داخل وجدانه هذا الاتصال الروحي إلى مخلوق خلقه خلاق، لترقى ذواتنا وتقترب إلى الإحساس الآمن، فالثّقة التي تغرسها الأمهات فينا تجعلنا نحسّ بالقوة والكمال .

ولعل "**إدوارد**" كواه إحساس محبوبة قلبه وهي تصارع المرض والاحتلال أيضا وبحثها الدائم عن جنسية تتبناها بعدما فقدت مشروعية الجنسية الفلسطينية.

وما زاد الطينة بلّة مواراتها تحت ثرى تكرهه وتكره أهله وكرهت التجنّس بجنسيته.

1- **نفسه:** ص 276.

2- نفسه : ص 246.

3- **خارج المكان:** ص 73.

وأكثر تعبير عن صلته بأمه وهو يتذكر ما كان بينه وبينهما فيقول " **لا بما أنا كائن فاقد القيمة، كما كنت أرى إلى نفسي، واحدا من أروع أوقات طفولتي، كنّا صوتين واحدنا لآخر، روحين متحالفتين بسعادة من خلال اللّغة [...] ولسنوات احتفظت في ذاكرتي بجرس صوتها الأعلى من المعتاد، وبالاتزّان الواثق في سلوكها، وبحضورها المبلسم والصابر على نحو حاسم بوصفها متاعا يتعين عليّ التشبث به مهما كلّف الثمن.**"[1]

أما بالنسبة إلى والده فالأمر يختلف تماما، فقد تمّ سرده ووصفه بصفات تنبأ بعلاقة متوترة وباهتة "**هيمنت قوة أبي المعنوية والجسدية على طفولتي ونشأتي، كان له ظهر ضخم وصدر برميلي نافر يوحي بالعصيان، رغم قصر قامته ويوحي بالثقة الطاغية بالنسبة إليّ على الأقل، على أنّ أبرز صفاته الجسدية مشيته المتيبسة كقضيب والمنتصبة على نحو يكاد أن يكون كاريكاتوريا.**"[2]

دون أن ننسى ما وفرّه "**وديع**" ذلك الأب القاسي "**إدوارد**" من مصاريف، وكيف أسهم في إنتاج هذا القطب النقدي عن طريق إدخاله إلي المدارس الأجنبية أيام الصبي وصرف أموالا باهضة على الجامعات الأميركية من مثل برنستون،Princeton وهارفارد،Harvard.

بمقارنة هذا النجاح الباهر الذي أهداه ربّ أسرة إلى ابنه الوحيد لكن هذا الأخير لا يغفر لهذه الذات المستبدة التي أورثت انشطار في ذات الطفل الصغير، والتي أورثته خوفا خجلا، ذّلا، في بعض الأحيان، فأبسط شيء لا يجيب الوالد عن أسئلة الصبي ولا يعطيه كبير اهتمام " **لم يترك لي نظام الضبط والتربية المنزلية الجامد الصارم، الذي حبسني فيه أبي منذ سن التاسعة أيّ متنفس أو أيّ مجال للإحساس بالذات في ما يتجاوز قواعده وترسيماته فلا يجيب على أسئلتي بل لا يكاد يعترف بوجودي هكذا يتحوّل أبي إلى ربّ عمل مهيب، أي إلى شخصية ما لبث أن كرهتها، ولأنّه كان يبدو فيها مثل نسخة أضخم وأقل آدمية عن الرجل الذي يشرف على حياتي.**"[3]

1- نفسه: ص85.

2- نفسه :نفسها.

3- خارج المكان: ص 42.

"**إدوارد**" يعاني من هذا الضغط مما ولّد لديه غربة مع أقرب الناس إلى حياته، فقوة شخصية الوالد وضعف واهتزاز وعدم ثقة الولد بشخصيته دام طول عمره.

اعترف وعي "**إدوارد**" بوجوب انتماء الإنسان منذ بداية حياته وترعرعه "**إلى محيط جغرافي وشكل حياة ولّغة وعقيدة لأسرة ما وشعب وجماعة ثقافية، يتمثّلها كنوع من المكان – الزمان(ايركسون) ويعني إيجاد الهويّة لدى إريكسون إيجاد مكانه في المجتمع وتوّليه الأدوار وتأديتها بمسؤولية، والاستخلاص من كل العلاقاتوالخبرات المتنوعة رؤيته وتوجهاته القيمية المستقلة وكذلك على الجماعات عليها باستمرار إثبات هويّتها بالنظر لتبدل أعضائها والتحوّل التاريخي [...] أما الطريقة التي يرتب فيها الفرد عالمه الداخلي فيمكن مقارنته بمساعي التنظيم الاجتماعي في الجماعات أو المؤسسات أو في المجتمعات كلها، وبالنسبة لإريكسون فإنّ إيجاد الهويّة الفردية والجمعية ينصهران في عملية تنظيم كبيرة، عملية متموضغة في لبّ الفرد ولكن أيضا في لبّ ثقافته الاجتماعية، عملية تؤسس في الواقع هويّة هاتين الهويّتن.**"[1]

هذا الانتماء هو الذي أرضخ "**إدوارد**" لقبوله كل أفراد أسرته بل حتى تقبله للعنف الجسدي من طرف الأب "**كان بمقدورهأن يكون عنيفا من الناحية الجسدانية فيصفعني صفعات قوية على وجهي وعنقي فأنكمش عنها أو أتجنبها بطريقة تشعرني بمذلة كبيرة، أسفت لقوته وضعفي أسفا لا تستطيع الكلمات التعبير عنه، ولكن لم يصدر عنّي ردّا أو احتجاج حتى عندما اعتدى عليّ بالضرب المبرح على نوع مهين وأنا طالب دراسات عليا في هارفاردعقابا على وقاحتي.**"[2]

والغريب في الأمر هو عدم إحساسه بالغضب "**وإن خلفت بعض الحزن وما يفاجئني أنها رسّخت فيّ حبا لأهلي مترسبّا وعجيبا في قوته، فقد تعايشت كل الإجراءات الإصلاحية التي مارسها أبي عليّ مع تصميم غريب لديه على تركي أسلك طريقي بنفسي في ما بعد[...] ولأنّي لن أستطيع أن أغفر له ذلك التنازع على جسدي وفرضه الإصلاحات والعقوبات الجسدية عليه رسّخا لديّ شعورا عميقا بالخوف العميق**

1 – بتر قوزون: البحث عن الهوية تشتتها في حياة ايريك ايريكسون وأعماله، ترجمه سامر جميل رضوان، دار الكتاب الجامعي، ط1،2010، الإمارات العربية المتحدة، ص111.

2– **خارج المكان**: ص 95.

الذي قضيت معظم حياتي أحاول التغلّب عليه ".[1]

خوف وخجل حاول **إدوارد** التحكّم فيه فأحدث لديه انشطارا في أناه ورهبة من كل آخر.

دام تحاور هذه الذوات التي تبناها هذا الأخير داخل خلده بنوع من الصراع الداخلي المقلق والمّوتر لكل ماهو قابع في أعماق نفس بريئة كانت ضحية أسرة، حاولت هذه الأخيرة ذات النّية الشريفة في إنتاج أداة ورمز ورجل يحمل اسم العائلة يكون في مستوى" **آل سعيد**" .

لكن هيهات. فقد أورثت هذه الأسرة ضغطا وكبتا إضافة إلي خوف وخجل قام **إدوارد** بسرد ذلك فقال:"**خوفي لإعلان الأخبار السيئة على نحو مباغت بما لا يتيح لي فرصة الرّد عليها والتمييز بين إدوارد في جماع إعاقاته وخطاياه المعروفة، وبين الكائن الجوّاني الذي أعتبره ذاتي الحقيقية والفضلى وهي ذات غامضة التخوم، حرّة ، فضولية، سريعة، شابة، وحسّاسة بل ومحبوبة والآن لم يعد في مستطاعي استظهار تلك الذات إذ تواجهني ذات وحيدة لا مناص منها منقوصة بل محكوم عليها بالإخفاق، لا تستقيم مرّة، بل إنّها بالتأكيد شاذة وفي غير مكانها.**"[2]

هويّة متحركة ومتغيرة وتعاني اضطراب جعلت من"**إدوارد**" يستسلم أحيانا ويكره من تقمّص هذه الهويّة المشتّتة والمستعصية على صاحبها بالدرجة الأولى "**بلغ بيّ الأمر حدّ كراهية تلك الهويّة ولكنّي لم أكن أملك بديلا عنها، وقد بتُّ موضع استهجان إلى درجة كبيرة.**"[3] لا لشيء سوى عدم الرضوخ لهوية واحدة ودحض الأخرى فالتركيب مهمة صعبة.

2 -<u>الأنا والأخر المدرسة:</u> غنّي عن البيان الخوض في موضوع التعليم وقيمة المدرسة، هذه المؤسسة المهمة جدا في تنشئة الأجيال، فالتربية والتعليم عمليتين أساسيتين في تنمية الإنسان بوصفه عضوا في جماعة ألا وهي المجتمع.

1- **خارج المكان**: ص 96.

2-**نفسه**: ص 120.

3- نفسه: ص120.

والتعليم هو بناء ثقافي لشخصية هذا العضو فهو يتأثر بالتعليم والمناهج المقدمة، كلّها تصّب أيضا في تنمية وحب الوطن داخل نفوس تلاميذها.

وتصبو هذه المناهج إلي ترسيخ انتماء الطفل إلي الوطن وشعوره بالمواطنة وحماية الوطن له، فتتغرس لدى هذا الأخير وتكبر معها الهويّة الوطنية.

"**وتعتبر المدرسة أقوى مؤسسة اجتماعية مؤثرة في التكوين العقلي والنفسي للناشئة، ولدورها المهم في التنشئة السياسية نظرا لطول فترة التعليم وضرورية العملية التعليمية.**"[1]

أما بالنسبة "**لإدوارد سعيد**" الكاتب والناقد الكبير إذ يتكلّم عن تجربة التعليم والمؤسسات التي سرد لنا عنها وأفاض في مؤلفه "**خارج المكان**"، عن تكوينه التعليمي والثقافي وكيفية تفتّح ذهنه ونمو مؤهلاته الموسيقية والرياضية وارتقاء ذوقه إلي مصاف الكبار.

وهو يرى أنّ المدارس مكان مميز، هذه الأخيرة هي صور مصغّرة عن المدن والبلدات التي قطن ودرس فيها واستأثرت اهتمامه، فدوّن كل ما علق في ذاكرته من التجارب المبكرة .

وبحكم أنّ التعليم أصبح اليوم أساسا في تنفيذ أيّ "**برنامج لأيّ نظام سياسي، لأنّه ينظر إلى التعليم على أنّه الوسيلة التي يستعين بها لاكتساب الأفراد والقيم والاتجاهات والمهارات والصفات التي تمكنهم من التكيّف مع اتجاهات النظام القائم [...] ويتم ذلك عن طريق تربية وتعليم يتسّمان بطابع سياسي معين [...] وفلسفته وعقيدته وأيديولوجيته.**"[2]

حاول "**إدوارد**" وبعد مضّي خمسين سنة الكتابة عن "**الأمور التي حاول استكشافها ضمن السطوة التي مارستها تلك التجارب المدرسية المبكرة جدا عليّ، وبسبب استمرار تلك السطوة، ولماذا لا أزال أنبهر وأهتم بها إلي درجة الكتابة عنها للقرّاء.**"[3]

1-عبد الله سليمان الكشاف،الهوية الوطنية للفلسطينيين في مصر، رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة: جامعةالقاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية .1984/ص23، نقلا عن إسماعيل عبد الفتاح عبد الكا في: التعليم والهويّة في العالم المعاصر-مع التطبيق على مصر- العدد 66، ط1، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية،2001، ص84.

1- إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي: المرجع نفسه، ص33.

3- **خارج المكان**: ص22

لا ننسي أنّ أول مدرسة ارتادها في بداية مشواره التعليمي مدرسة"**إعدادية الجزيرة**" التي كان يديرها طاقم إنجليزي، ولم يكن فيهالا العرب ولا المسلمين.

درس فيها من خريف 1941إلي آيار 1942وعاد إليها1943-1946مع تلاميذ مختلفين من أرمن يونانيين ويهود مصريون وأقباط إضافة إلي عدد قليل من أولاد الإنجليز.

يقول عن هذه المدرسة "**وقد منحتني"إعدادية الجزيرة"اختباري الأول لنظام محكم أنشاه البريطانيون كمهمة كولونيالية، كان الجوّ جوّ طاعة عمياء يؤطرها إذعان بغيض عند المعلمين والتلامذة على حد سواء، ولم تكن المدرسة مثيرة بما هي مكان للعلم، ولكنها أمدتني بأوّل اتصال مديد مع السلطة الكولونيالية من خلال الإنجليزية القحّة لأساتذتها وللعديد من التلامذة، ولم تكن لي علاقات متصلة بأولاد الإنجليز خارج المدرسة ذلك أنّ حبل سُرة سُريا كان يجمعهم ويخفيهم في عام آخر مغلق عليّ، فأدركت تمام الإدراك كيف أنّ أسماءهم صحيحة تماما وملابسهم ولكناتهم ومعاشراتهم مختلفة كليا عن ملابسي ولكنتي ومعاشراتي، ولا أذكر أنّي سمعت أيا منهم يشير إلي الوطن غير أنّي ربطت فكرة الوطن بهم، وعلى الرغم من أنّي لم أكن أحب الإنجليز أساتذة أو نماذج أخلاقية [...] القاهرة المدينة التي أحببتها على الدوام دون أن أشعر بانتمائي إليها[...] أولاد** "إعدادية الجزيرة " **ظنّوا أنّنا مصريون فقد كان ثمة ما هو نشار وفي غير مكانه في أمرنا وفي أمري أنا خصوصا دون أن أدرك تماما ما هو."**[1]

ليس هذا كل ماعلق بذاكرة الفتى أو حيّر أفكاره، بل إحساس بالانتماء إلى وطن ليس وطنه ولّغة قومية ليست لّغته الأم، فالتركيز على اللّغة القومية داخل المدارس ينّمي الشعور الوطني الذي يمنح هويّة واحدة عبر وسائل التعليم من مثل الكتب والقصص والألعاب والأناشيد والقصائد،فالعلم في الصغر كالنقش غلى الحجر فتسهم المدرسة "**وتثبتّ الشعور بالانتماء، وهذا أهّم ما يحتاج الإنسان في حياته، أي أن يشعر بالانتماء إلي جماعة تقبله ويقبلها."**[2]

1- **خارج المكان**: ص70.

2- إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي: المرجع السابق، ص96 .

أما "**إدوارد**" الطفل المسكين الصغير يتعّذر على ذهنه إدراك هذه الأمور البسيطة في ظاهرها المعقدة في باطنها" **فالدروس والكتب إنجليزية على نحو ملغّز، نتعلّم فيها عن المروج الخضر والقصور وعن الملوك جون وألفرد وكانون بالجلال الذي يستحقونه، حسبما يذكرّنا معلمونا بلا انقطاع. لم يكن عالمهم يعني لي الشيء الكثير عدا إعجابي بإنتاجهم اللّغة التي يستخدمونها، وقد بدأت أنا العربي الصغير أتكلّم عنها بعض الشيء، تجدهم يولون أهمية مبالغا فيها لمعركة هايستنغز ولشروح مستفيضة على الإنغلزو الساكسون والنورمان [...] إنجليز مهفهفون ذوو أسماء يحسدون عليها وعيون زرق، ولكنات فطنة بتارة، لا أذكر كيف كانت لكنتي في تلك الأيام، لكن الأكيد أنها لم تكن إنجليزية، والغريب في الأمر أنهم كانوا يعاملوننا جميعا على اعتبار يجب أن نكون– أو أننا نرغب أن نكون – إنجليزا.**"[1]

فالتحدث عن الأمجاد الإنجليزية والسيطرة المحكمة لنظام كولونيالي صارم يعتبر كل التلاميذ وحدة واحدة قصد ترسيخ حب المملكة العظمى وإنتاج عقول صغيرة تكبر لتكبر معها الهويّة البريطانية .

وتكتمل الهويّة أو الذاتية بتحقق العمليات التي تمّكن الطفل من التقمص أو الاتحاد مع الأشخاص " **ذوي العلاقة بالموضوع من حوله داخل أسرته ومدرسته ومجتمعه وتكون الهويّة خطوة مهمة في تماسك شخصية الفرد ووحدتها لكي يتمكن من بلوغ درجة النضج تحصنه من اضطراب السلوك واعتلال الشخصية في حياته اللاحقة [...] وإنّ الهويّة القومية ليست معطى ثابت ولا مكتسبا أزليا عابرا للتاريخ ولكنها دائمة، لأنّها تعبير عن الانتماء إلي قومية معينة وإلى أمة محددة تملك المقومات القومية كافة[...] كما أنّ الهويّة شعور نفسي بالانتماء إلي هذه الهويّة القومية.**"[2]

ليست "**إعدادية الجزيرة**" وحدها،بل أيضا "**المدرسة الأمريكية للأطفال**" الذي كان" **إدوارد**" يرى أنّه أقرب لهم بحكم جنسيته الأميركية.

ليجد نفسه وقع في مأزق أشد من سابقتها "**كان يفترض بي أن أكون بين أبناء جلدتي في المدرسة الأميركية، على أنّه قُدّر لي أن أصير غريبا فيها أكثر من إعدادية**

1- **خارج المكان:** ص 66، 67.

2– إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي: المرجع السابق، 25، 17.

الجزيرة، ذلك أنّ المدرسة الأميركية أجبرتني على أخذ إدوارد على محمل الجد أكثر من ذي قبل بما هو كائن معطوب وفزع وضعيف الثقة بالنفس، وكان الشعور المسيطر عليّ هو شعوري بامتلاك هوية مضطربة أنا الأميركي الذي يبّطن هوية عربية أخرى لا أستمد منها أي قوة بل تورثني الخجل والانزعاج."[1]

تفاقم الشعور بالانفصام والاغتراب عن الجوّ العام فهو الفتي العربي، والباقي أجانب فيتساءل لماذا هو موجود هنا؟ هل وقع خطأ في موقعه، وما هو ذنبه لكي يتحمل هذا الضغط المزعج ويتحمل هذا الألم الكبير داخل قلب طفل، لا يريد إلاّ أن يشبه غيره؟.

يقول إدوارد "**يوما بعد يوم في المدرسة أخذت أشعر بالتفارق بين حياتي الشخصية، أنا "إدوارد" ذا الهويّة المزّورة والأديولوجية، وحياتي في البيت.** "[2]

والأمر سواء إذا ما انتقلنا إلى "**فكتوريا كوليدج**، Victoria college" أو كما يصفها "إيتون الشرق" هي جهاز تعليمي إنجليزي لا يوجد فيها تلميذ إنجليزي واحد.

وخلافا لما هو الحال في "**إعدادية الجزيرة**" حدثت تجربة جديدة "**صار اسمي "سعيد" حصرا، مجهول الاسم الأول أو مختصره إلي "إ" وبصفتي" سعيد" دخلت عالما هجينا [...] واكتشفت أنّ هذه المدرسة مكان أكثر جدية عن أيّ مكان ارتدته وأنّ الضغط أكبر والمعلمين أقسى، والتلاميذ أكثر تنافسا وأحدّ ذكاء، وفق ذلك كله شعرت أن لا شيء في منزلي أو عائلتي قد أعدّني لكل هذا، كنت وحدي حقا شخصية مجهولة وغريبة سوف تبتلعها قريبا الآليات المعقّدة لمكان واسع مثبط للهمم، هو أكبر بعشرة أضعاف من أيّة مدرسة ارتدتها من قبل.**"[3]

أزّمت لديه هذه المدرسة وعمّقت الهوه الدفينة لانتماء هذا العربي الأميركي، وما الهدف من الدراسة عند أساتذة لا يملكون قلوب البشر بل هي أقرب إلي الآلات.

وخلال دراسته في **فكتوريا كوليدج** بدأ يلاحظ "**الانفصام شبه المطلق بين حياتي السطحية في المدرسة وبين حياتي الجوانية المعقدة، وإن تكن هامدة غالبا، والتي تعلّقت بها وعشتها من خلال المشاعر والأحاسيس التي تزّودني بها الموسيقى والكتب**

1- **خارج المكان**: ص122، 124.

2- خارج المكان: ص125.

3- **خارج المكان**: ص224.

والذكريات المجدولة بالاستيهامات فكأنّ الاندماج والحرية اللذين أحتاج إليهما للتوفيق بين حياتيّ الاثنتين محكوم عليهما بالتأجيل الدائم، علي الرغم من تمسّكي بالاعتقاد المتسامي أنّهما سوف يلتحمان بطريقة أو بأخرى."[1]

"**إدوارد**" دائم اللجوء إلي عوالم الأحلام، فالطفل الذي يسكنه لا يفارقه البتّة حتى وهو يستذكر إحساس جاوز عنه الدهر خمسين سنة، لأنّ التعليم فنّ وممارسة قبل أن يكون مناهج ودروس.

ومشكلة **الهويّة المضطربة** عند "**إدوارد**" ناتجة عن هده الترسّبات المبكرة والتنشئة الناقصة "**وإنّ أزمة الهويّة ليست مجرد مشكلات ثقافية داخلية مثل الصراع ما بين العصرية والتمسك بالتقاليد، أو بين ثقافة الريف والحضر، وإنّما تعبّر عن حقيقة الصراع بين الثقافات الوطنية والأجنبية، وبين الذات الوطنية والسيطرة الأجنبية.**"[2]

لأنّ"**إدوارد**" يسكن في"**القاهرة**" أو كما يسميها جنّة الأجانب، واختيار أسرته للمدارس الأجنبية قصد التحصيل الجيّد، وتبنّيه الهويّة الأميركية والعربيّة في آن واحد.

ساهم هذا الضغط في توّتر روح "**إدوارد**" الفتى، وكبُر على إثر هذا القلق "**فحتى توكيد الهويّة بحد ذاته يعتبر أزمة، وأزمة الهويّة ناتجة عن واحد من اثنين إمّا إحساس بانفصال الشعور بأنّ نحن ليست هي "نحن"، وإنما قسري بالآخرين من الخارج.**"[3]

حيرة تجتاحه وأرّق لن يفارق إنسانا يشعر بأنّ المكان يرفضه، فأينما حلّ ارتحل وكلما أحب أغتصب واقتلع.

فطبيعي أن ينتقل من العادي إلى غيره، لأنّ الإنسان يطوّر غريزته والبقاء تحت سماء يقاوم حرّ الشمس أفضل من الاستكانة تحت قبو قذر.

لا تضيق إلاّ لتفرج فقلب "**إدوارد**" المحترق وجذوة الحيرة صقلت نفسا كونية ترى العالم كله وطنا والبشرية كلها وحدة لا تتجزأ، تسكن الكوكب الأزرق وتتعايش داخل ثقافة ممزوجة بطيب العيش.

1- نفسه : ص268.

2- إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي: المرجع السابق، ص23.

3- نفسه: ص 25.

فالله خلق الإنسان قاب قوسين أو أدنى،فلا حرب ولاقتلاع أراضي على حساب أخرى – فالقسمة إذا ضيزى– وأكثر من وصف"**إدوارد**" من عاش مثله، والشعر يُسقط كل ما يُقال قبله ويُغني عمّا يأتي بعده .

فهاهو"**محمود درويش**" يرثي ابن بلده

يقول: أنا من هناك. أنا من هنا
ولستُ هناك، ولستُ هنا .
لِيَ اسمان يلتقيان ويفترقان ...
ولي لُغَتان، نسيتُ بأيِّهما
كنتَ أحلَمُ،
لي لُغةٌ انكليزيّةٌ للكتابةِ
طيِّعةُ المفردات،
ولي لُغَةٌ من حوار السماء
مع القدس، فضيَّةُ النَبْرِ
لكنها لا تُطيع مُخَيّلتي
والهويَّةُ؟ قُلْتُ
فقال: دفاعٌ عن الذات ...
إنَّ الهوية بنتُ الولادة لكنها
في النهاية إبداعُ صاحبها، لا
وراثة ماضٍ. أنا المتعدِّدَ... في
داخلي خارجي المتجدِّدُ. لكنني
أنتمي لسؤال الضحية. لو لم أكن
من هناك لدرَّبْتُ قلبي على أن
يُرَبي هناك غزال الكِنَايةِ ...
فاحمل بلادك أنّى ذهبتَ وكُنْ
نرجسيّاً إذا لزم الأمرُ

منفىً هوَ العالَمُ الخارجيُّ
ومنفىً هوَ العالَمُ الباطنيّ
فمن أنت بينهما؟
لا أعرِّفُ نفسي
لئلاّ أضيِّعها، وأنا ما أنا
وأنا آخَري في ثنائيّةٍ
تتناغم بين الكلام وبين الإشارة
ولو كنتُ أكتب شعراً لقُلْتُ :
أنا اثنان في واحدٍ
كجناحَيْ سُنُونُوَّةٍ
إن تأخّر فصلُ الربيع
اكتفيتُ بنقل البشارة !
يحبُّ بلادا، ويرحل عنها .
[هل المستحيل بعيدٌ؟]
يحبُّ الرحيل إلى أيِّ شيء
ففي السَفَر الحُرِّ بين الثقافات
قد يجد الباحثون عن الجوهر البشريّ
مقاعد كافيةً للجميع ...
هنا هامِشٌ يتقدّمُ، أو مركزٌ
يتراجَعُ. لا الشرقُ شرقٌ تماماً
ولا الغربُ غربٌ تماماً،

فإنّ الهويّة مفتوحَةٌ للتعدّدِ

فكأنّ **إدوارد** يصف نفس ويحكي حاله، لكن الشعر سيّد الكلام والشاعر يأسر بكلامه القلوب فكيف إذا كان قلب شاعر تتحّد مع روح ثكلى فيخرج من فمه أغلى من ماء

العيون ينزل على وجنة "**إدوراد**" لتبرّد لظى وحرمان من هويّة وانتماء، وتبعد عنه اضطرابا ناتج عن وطن مسلوب ولّغة ممزوجة بتوأمة تنافسها التفوه بالكلام، ودينا يقترب منه أحيانا وأخرى يصبح علمانيا.كائنا مهما كان "**إدوارد**" يبقى إنسانا كانت أمنيته الأخيرة **الراحة والاستقرار** فهذان حقيّن مشروعين ببساطة لأيّ كائن بشري .

الخاتمـــة

نستخلص من دراستنا النتائج الأتية وقد تم اختيار الأهم :

1- رسم لنا "**إدوارد**" لوحة داخل ميثاق سير ذاتي، يؤطر فيه نواميس سفر إلى الداخل عبر جغرافية ترحال، ومنفى، وحنين، واشتياق إلى زمن لن يستعاد. هو تذّكر، فنوستالجيا انتماء إلى وطن أضحى يوتوبيا من الطراز الأول.

2- بين وحدة المتعدد، وتعدّد ما هو موّحد. داخل زمن **الهويّات القاتلة** وانفجارها وتجنّب السقوط في فخّ الخيار بين هويّة ثابتة منغلقة، وأخرى مشتتة ومركبة من عناصر تبتعد وتقترب بحكم الاحتكاك والتبادل الثقافي.

3- إنّ التحولات الكبرى والجذرية التي تعيشها الإنسانية ولّدت لدى الإنسان شعورا بالإضطراب والتمزّق والخوف من فقدان **الهويّة، فالهويّة** ليست فعلا نهائيا، إنّها حضور حيّ متجدد مفتوح على التعدد والاختلاف ومتفاعل مع الزمن والمكان.

4 – الهويّة علاقة جدلية بين الأنا والآخر. ومع تزايد الاحتكاكات الثقافية بين الشعوب والأفراد. فيجب أن نتعلّم التواصل والتعايش بين ما هو كوني وماهو محلي. ممّا يجعلها عملية توازن غير ثابتة، وكأنّ **الهويّة** تتكون من عناصر **جزئية صغيرة** "الانتماء، الاثنية" **وعناصر جزئية كبيرة** "الدين، اللّغة، القومية، والمواطنة"، تتطلّب التشّكل الدائم والتغيّر المستمّر.

5-إنّ افتراض وجود **هويّة** صلبة وموّحدة وناظمة لكلّ أفراد جماعة بشرية من قبيل الوهم، إذ أصبحت كلّ الهويّات مركبة ومتعددة المنابع، والعزلة **والتقهقر الهوياتي** لم يعد الأسلوب الأنجع للدفاع عن الذات، بل هو تعبير عن عجز التفاعل الإيجابي والتعامل بروح مفتوحة مع متغيّرات العصر وتحدّياته الراهنة.

6-العالم أصبح الآن ديمومة اللااستقرار فهو قائم على الاختلاف والتعدد، وعلينا أن نبذل جهودا كبيرة للتحرّر من شرنقة الآنويّة **والهويّة النقيّة**، والخروج من كلّ هذا التعّقد والخوف، والخمول الفكري إلى التحرر والتعايش على أرض واحدة دون حروب.

كما أوضح ذلك **إدوارد سعيد** في مؤلفاته التي نادى من خلالها بتعزيز المحبّة والتفاهم بين البشر، فالسلام والأمن مطلبين بسيطين وصعبين في الآن نفسه .

ودعا أيضا للنظر إلى العالم بعيون جديدة وتجارب البشر وتفاعل الثقافات، والابتعاد عن الهويّة المغلقة لأنّها ذات بعد واحد.

7- تدخل العلاقة الجدلية بين **الهويّة والدّين واللّغة والتبادل الثقافي** عموما، ليشمل التوجهات المدرسية والفكرية التي تبلوّر على يدها فكر **إدوارد سعيد**، فاللّغة العربية تحتّل في ذاكرته تصادما لّغويا وحضاريا مع الإنجليزية، مما شكّلت لديه ازدواجية، أحيانا في التفكير وأخرى للتحليق عبر آداب الشعوب المختلفة قصد الحفاظ على شخصيته **وهويّته** المرّكبة من الانفصال والاغتراب.

- سفر **إدوارد** ليس فقط بين الأمكنة بل بين اللغات المختلفة.

8- **إدوارد سعيد** نصّ مفتوح على الكون، كائن محلّق خارج المكان، عابر للحضارات، مثقف كوني، متكلّم إنساني، فقد الوطن العربي المدافع عنه داخل قلب العالم الغربي وفوق منابر الجامعات الأول في العالم قاطبة.

اختار العلم والمعرفة عالما يستقّر فيه، وهويّة مرّكبة متعددة الهويّات ولا هويّة له. فهو ليس من المكان. لكنه فيه في الوقت ذاته، أحجية لن يستطيع فكّ طلسمها إلا صاحبها.

قائمة المصادر والمراجع

المصـــادر

أ- المدونة:

1- **إدوارد سعيد:** خارج المكان، ترجمة فواز طرابلسي، دار الاداب، لبنان، ط1، 2000.

ب-المراجع بالعربيـة

2- **أمين معلوف:** الهويات القاتلة، ترجمة نبيل محسن، ورد للطباعة والتوزيع، سوريا، ط1، 1999.

3- عبد الله البريدي: اللغة هوية ناطقة، منظور جديد يمزج اللغة بالهوية والحياة، كتاب المجلة العربية، دون سنة .

4- علي حرب : خطابة الهوية (سيرة فكرية) ، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2، 2008 .

5-علي حرب: النصّ والحقيقة، المركز الثقافي الغربي، بيروت- لبنان، ط3، 2000

6- محمد الشحات: سرديات المنفى، الرواية العربية بعد عام 1967، أزمنة للنشر، والتوزيع، عمان- الأردن، ط،1، 2006.

7- محمد الداهي: صورة الأنا والآخر في السرد، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، ط1، 2010.

8- **محمد العربي ولد خليفة:** المسألة الثقافية وقضايا اللّسان والهوية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2003.

9- **إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي:** التعليم والهويّة في العالم المعاصر- مع التطبيق على مصر، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، ط1، 2001.

ج-المراجع المترجمة

10- **إدوارد سعيد:** صورة المثقف، محاضرات ريث سنة 1997، ترجمة غسان غصن، راجعته: منى أنيس، دار النهار، ط3، 1990-

11-**إدوارد سعيد:** خيانة المثقفين (النصوص الأخيرة)، ترجمة: أسعد الحسين، دار نينوي للنشر والتوزيع ، دون بلد النشر ، دون طبعة، سنة 1432 هـ.

12- **إدوارد سعيد وبرنارد لويس:** الإسلام الأصولي(في وسائل الإعلام الغربية من وجهة نظر أمريكية)، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط 1، 1994.

13- **إدوارد سعيد:** تعقيبات على الاستشراق، ترجمة وتحرير: صبيحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، 1996.

14- **إدوارد سعيد:** العالم والنّص والناقد، ترجمة عبد الكريم محفوظ، منشورات إتحاد الكتاب العرب، 2000.

15- **بتر قوزون:** البحث عن الهوية-تشتتها في حياة ايريك ايريكسون وأعماله، ترجمه سامر جميل رضوان، دار الكتاب الجامعي ، الإمارات العربية المتحدة ، ط1، 2010.

16- **بول ريكور:** الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة، تعليق، تحقيق: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، لبنان، ط1، 2009.

17- **روجيه غارودي:** محاكمة الصهيونية الإسرائيلية، دار الشروق، ط1، 1999.

18- **روجيه غارودي:** الإسلام في الغرب (قرطبة عاصمة العالم والفكر)، ترجمة: دوقان قرقوط ، دمشق، ط 1، 1995.

19- **روجيه غارودي:** فلسطين أرض الرسالات السماوية، ترجمة: قصي أتاسيس، ميشيل واكيم، دار طلاس، دون طبعة، 1991.

د شبكة الأنترنت:

20- **الفيلم الوثائقي:** رجال صنعوا التاريخ، تعليق: عفراء سليمان وآخرون، ترجمة: محمد باسل الويش وآخرون، إعداد حسين وصالح حسن.

21- **عبد الله تركماني:** إدوارد سعيد، "المثقف الكوني والهوية المركبة"، مجلة ابن رشد، العدد 10، 2010.

فهرس
الموضوعات

فهرس الموضوعات	رقم الصفحة
مقدمة	أ–ج
الفصل الأول: الثنائية الضدية في الهوية	5–19
1– **الثنائية فضائية** : فلسطين، مصر، لبنان/أمريكا.	5
2– **الثنائية زمانية** : الماضي، الحاضر/ تشّكل الهوية عبر الذاكرة.	14
الفصل الثاني : الثنائية الضدية في شخصية إدوارد سعيد.	21–31
1– **الثنائية علميةّ** إدوارد/سعيد.	21
2– **الثنائية دينية** : سلم/حرب.	26
الفصل الثالث :هوية إدوارد بين الأنا والآخر	35–48
1– الأنا والآخر الأسرة.	36
2– الأنا والآخر المدرسة.	40
الخـاتمة.	50
قائمة المصادر والمراجع.	53
فهرس الموضوعـات.	56

إنّ الانفتاح على الحضارات الأخرى والحوار معها يبث الحيوية في مكونات الهوية، فجاءت دراستي الموسومة بالمثاقفة والسيرة الذاتية في "خارج المكان" لإدوارد سعيد.

من خلال هذه الدراسة استنتجنا أنّ إدوارد يعاني اضطراب في هويته، فمزّق هذا الاضطراب شعوره وعمّق لديه النفي والمنفى.

فهل الانفتاح على الآخر والحفاظ على الهوية أمر ممكن؟ أم هذا الانفتاح يهدّد هذه الهوية بحكم حيويتها وعدم سكونها.

فالهوية لا تسكن الثبات ولا السكون بل الحركية والانفتاح المشروط.

L’interculturalisme et l’enchange avec l’autre s’integre dans la construction de l’identité . Notre étude qui s’intitule l’intre culturalisme et l’autobiographie à l’exterieur de : Idouard Said ; eneffet à travers cette étude on a constaté que ce Idourd s’ouffre d’une perturbation ou niveau de l’identité celle qui enduit à l’exclusion .

Alors est ce que linter culturalisme menace l’identité ?

Cette derniere changeable et active et elle se peut s’ouvrirait à l’autre dans des mesures.